

سعد سعود

رواية

محمد حسين السماعيل



شبكة
الألوكة
www.alukah.net

سعد سعود

محمد حسين السماعيل

العَبُّ يَا سَعْدُ

تذكّر سعدٌ حين كان صبيئهُ القريةِ يصرخون "العَبُّ يا سعد، العَبُّ يا سعد " ولكن سعداً المأخوذ
بتلك الفتاة الشقراء التي كانت تتقافزُ برشاقةٍ من فوق الحبل الذي تلقّاه فتاتان في الهواء من فوقها،
وتحذّرُ أن يرتطمَ بقدميها وهي تغيّي:

بيوح يا بيوح

قلب العرب مجروح

عَ الشام يا الله روح

وجيب لي معك بأره

بأره حلابه

تجلب لي وتولّد

وتجيب لي طير اخضر

بمشي ويتمختر

ينظر سعد هناك، حيث الصوت الطفولي الرقيق يشدو في لعب ومرح فيأتيه الصوت كما يتخيله

مدهشاً مستفزاً متألقاً ملئياً بالحياة:

بيوح يا بيوح

عَ مكة يا الله روح

وجيب لي معك نخله

نخله وسجاده

أفرشها وصلي

وأدعي لبلادي

وادعي لي لأنجح

وأجيب شهاده

شهادة دكتوره

ع راسها صوره

مكتوب عليها

حنين الأموره

ثم يعود الصوت ليكرر اللازمة ويلبسونها لكل المتقافرات الفرحات، لجين وسميرة وخديجة وفاطمة

ووو... وسعد سارح في مقاطع الأغنية العالية يحاول أن يللمم روحه منها:

بيبوح يا بيبوح

عتونس ياالله روح

وجيب لي ياسمينه

مع غصن زيتونه

وجيب لي معك سمكه

سمكه فراره

تحملني لبلادي

بسرعة طياره

...

ويزداد صراخ أطفال القرية وإلحاحهم: العب العب يا سعد!

وسعد أذناه متعلقتان بالبلاد العربية التي تتقلب على ألسنة الفتيات مع دوران الحبل حول أجسادهن الراقصة الفرحة، وقلبه متعلق بخطوات البنت السمراء المعصوبة العينين وهي تمشي بين مربعات مرسومة على الأرض، تقدر بخطواتها ألا تدوس واحدا من تلك الخطوط. هو كان يعرف أنهم كلهن يجتزن هذا الخط بنجاح، ولكن قلبه كان دائما يخفق كلما رأى هذه السمراء وهي معصوبة العينين وغداؤها تنسدل على وجنتيها ورأسها مرفوع وتجتاز الخطوط الطباشيرية وهي تقول: أغا

فتقول لها البقية: آغا أو استفتوحة

كان أطفال القرية يعرفون أن نظرات سعد إلى هذه الفتاة السمراء تختلف لونا وطعما وهيئة عن بقية النظرات، فهي نظرات مشحونة بالعيون المبحرة المتسمرة المندهشة.

- العب يا سعد! صرخ أحد الصبية بغضب.

يحمل سعد الطابة ويرميها في الهواء بقوة.

فيتراكم فريق من الأطفال لالتقاطها، ويهرب آخرون في أطراف الساحة كي لا تصيب الكرة أجسادهم ويحاولون في غياب خطر الكرة أن يثبتوا الأحجار السبعة فوق بعضها ليعلنوا الفوز، كان سعد كما يقول بقية الأطفال كالقرد يتقن الألعاب كلها، ودائما هو المنتصر؛ فهو حين يركض يشعر أن الحياة تندفع إليه فيلتهم الأرض التهاما بخطواته الواسعة..

لكنهم كانوا يعرفون كيف ينتقمون منه فيجعلونه اللص دائما في لعبة الحاكم والجلاد ويصدرون عليه أحكاما قاسية؛ كأن يُضرب بالعصا خمسين جلدة أو عشرين أو أن يقلد صوت الحمار أو أن يمشي مشية البطة . وكان سعد يفعل ما يأمره به الحاكم بحب وبلا تدمر، بل كان يستعجل تنفيذ

الأحكام ليكمل اللعب

الع ب يا سعد!

أخفى الأطفال اللاعبين الحزام تحت حجر مرمي على الأرض بإهمال بينما كان سعد يعد للعشرين وهو مغمض عينيه وبعد أن فتحتها بدأ يفتش عن ذلك الحزام المخفي وبقية فريقه يقولون له كلما

اقترب من الحزام: حامي

وكلما ابتعد عنه: بارد

وكان يسألهم بين الفينة والفينة حين يتعبه البحث: حامي؟ فيقولون: بارد! فيسير بالاتجاهات كلها حتى يختاروا له المسار إلى الحزام المخفي.. وكان دائما يعثر على الحزام بسرعة وفي لحظات ثم يحمله ويهرب بقية الأطفال بعيدا خوفا من ضربات شديدة سيوجهها لهم سعد حين يعثر على الحزام ضربات ترقدهم في الفراش أياما وجلدهم متورم متلون..

في ذلك النهار الربيعي انتهت اللعبة كما تنتهي عادة بفوز سعد ولكن شيئا ما كان يربطه بالجهة الأخرى من الساحة، هل هو غياب الفتيات عن ملعبهن، أم هو غياب الفتاة السمراء عن ذلك الملعب؟! سار والعيون ترقبه إلى الجهة الأخرى، سرح نظره، ولكنه لم ير أحداً فعاد، ولكن ليس كعادته فقد كانت ترسم فوق وجهه لوحة من القلق والأسئلة والحيرة...

في المشهد الأول

سعد: أتيت من هناك، من عالم السحر والجمال، من قصص الجن والرحيل، من بين أسنان الغول، ومخالب الذئب، وخضرة الغابات، وتناؤب الصباحات وهطل السكون في عيون الصبايا، أتيت من قصة الحياة في سلة من التين وقطف من العنب، وقصيدة من عيون الماء... من قرية يلفها الياسمين وينمو على أطرافها الحب ويعلو وجهها الهناء والرضى.. وغدا أقطف ما تبقى من الورد فحديقتنا ما زالت حبلى بالزهر وبالدهنون . وبعد أن أنام ليلتين على بساط جدي القديم سأحمل الرمال من طريقنا إلى بقية المشوار.. سنزرع الدماء في الحقول والجبال والأشجار كي يرجع النهار باسماء والصباح طائرا مغردا والسماء أغنية من غسل ولوز

سلمى: وبعد يا سعد!

سعد: سأقول للزيتون كلمتين سأوشوش الحسون، وبعدها أنام على سجادة الصلاة. وعدت أومي قبل أن أعانق الطريق أن أنام فوق سجادة الصلاة...

سلمى: والنساء؟

ستحمل نساء قريتي خريير الماء في عيونهن، وحفيف الشجر على وجناتهن، ولون الورد في حروفهن،
وترقص الدروب في غنائهن، سينسجن للربى وشاحاً وللقمر عباءة من الفرح، ويمشطن بالكمال
والدلال ثوب الشمس، سينثرن عطر الصباح على جباهنا السمراء ويغنين لنا: " يما مويل الهوا يما
مويليا ضرب الخناجر ولا حكم النذل ييا "

سلمى: والرجال؟

يا الله للرجال!... في صوتهم تعذب العذاب، وغاب في عيونهم ملامح الغياب، وفي قلوبهم مساح
الأطفال وملعب كبير ومسجد وقية وسنبلة. مواهم سعادة اللقاء وفرحة ارتواء وبهجة الرضا...

سلمى: والآن يا سعد؟!

- ترفقي ومدى يدك لتسحي البشارة من سحابة خضراء فيها طيور واعتكاف وأنين وساحة من
الأرق ومنزل كبير على جفونه تعمد المساء والصباح واصطفت قوارب الرحيل، ترفقي فقد أتى
الصباح...

سلمى: وبعد يا سعد، من يوقظ الشمس في وقت ملبد بالغبار، من يوقظ النهار من قبضة الموت

والظلام والصرخة الحمراء؟

سعد: لم يبق غير سوسناتي، وبعض الملح والصبر، وغابة من الشظايا وأنشودة الحناء، وصوت أمي:

" يما الأرض دم الأرض سيال

رجال تفدي الوطن ورجال خلف رجال

سلمى: وبعد يا سعد، من سيعلم الأطفال أن ما تراه في عيونهم من موج قد اقترب، من سيسرح

الخيول في قلوبهم؟ من سيزين النوار في صدورهم، من سيلصق الزيتون فوق همسهم؟

- يا أنت يا سلمى؟ حليب أمي واحة من الفرح إن يسكن المارد في عينيه فهل يسكن الحب في

ذرة من التراب.

سلمى: يا أنت يا سعد؟

سعد: يا أنت يا سلمى!

وصفق أهل القرية كثيرا، وأسدت الستارة على مجموعة من الأطفال ومعلم بعينين دامعتين

المشهد الثاني

في غرفة التحقيق

- أنا مواطن عربي، جسدي تغذى من رائحة نهر العاصي ومن عيون جبال عجلون ومن

مياه زمزم، وعينيّ انغرستا في تراب بلاد العرب عرقا وحبا وتعبا وحزنا وفرحا، وفي أسوارها

ومبانيها وشوارعها.. وأقدامي تعبت كثيرا وهي تتصفح حاراتها، وأصدقائي فيها وأجساد

أحبتني في قبورها...

- أنت من وين؟

- أنا من هنا، من صوت الريح التي تضرب كل صباح سارية في مدرسة، ومعمل وبستان،

من بين أشجار الدفلى أتيت، ومن تحت أشجار الزيتون خرجت

- من أين أنت، أصلك من أين يا...؟

- أصلي... يكبر في جسدي حب ودم فيه ذكرى سوسنة وعصفور وخيمة

- أصلك... ؟
- في أمريكا لا يسمع أحد هذا السؤال؟
- أجب على قدر السؤال؟
- انا من نابلس، جبل النار من جسد امرأة تغسل كل صباح عتبة من عتبات الحب والحنين
تعيش في حلم مسيح بالدماء والشهداء.
- فلسطيني؟
- نعم، أحمل كل حقيقة تعبت بي وبدمي.
- اذهب إلى دائرة اللف والدوران "اللي بعده"
- هذه كل الوثائق التي تثبت حي لعروبي؟!!
- اللي بعده!
- منذ أربعين سنة وأنا أحمل حي بيدي ودمي اختلط بتراب الوطن العربي من محيطه إلى
خليجه؟
- اللي بعده؟!!
- من يرفض سماع صوتي ويسألني دوماً من أنت، ومن أين أنت، وكيف أتيت، فلينس
أغنيات العرب وليحفظ أناشيد جديدة تمجده وتطرب الأنا في أذنيه؟
- اللي بعده
- تبا لك!
- إلى السجن در!!

وتسدل الستارة على أصوات صفيق وتهليل وصيحات استحسان عبأت المخيم بالقسوة
والقهر والصخب فتناقل الرجال الوجع، وتبادلت النساء الدموع، وأما الشباب فتبادلوا السجائر في
ممرات ترايبية أحاطت خاصة المخيم وقلبه وروحه

حصّة الإشغال ١

الموت الرابع

في غرفة الصف لا تنفع النظرة الواحدة ولا الصرخة الجامدة ليصمت الطلاب فما يفعل أبو سعد حين يكلفه المدير بإشغال حصّة ما؟ وهو يعرف أن الطالب إن لم تشغله يشغلك ويهمك! ما يفعل وهو يعرف أن الطلاب لا يحبون أن تعاد لهم الدروس مرة أخرى، وكيف يملأ حصّة من فراغ وقلق؟

يا أولادي سأحكّي لكم حكاية، ما رأيكم؟

الطلاب بفرح - نعم نعم!

كان في قريتي رجل مجنون يهاجم النساء ويصق في وجوههن ويسرق أغطية رؤوسهن، ولم تنج امرأة من قريتي مرت من باب بيته من أذاه، البصاق والسرقة.

وكان النسوة يضاحك بعضهن بعضا بذكر ما حدث لهن مع هذا المجنون

وكان أهل القرية ينادونه شعاعا أما اسمه الحقيقي فهو عيش وسموه شعاعا لأنه سريع العدو وفي حركته مفاجأة...

كان شعاع يقطّع شوارع قريتي حافيا راكضا لا يتوقف عن الركض ولا يكل ولا يتعب، وأما طعامه فكان حشائش الأرض وما يسرقه من أطفال القرية أو ما يسرقه من بيوتها..لم يكن شعاع يقبل الطعام من أحد، وكان يحرص على أن يكون بنطاله مرفوعا إلى صدره وقميصه منسدلا على رديه، وهو لا يمشط شعره ولا يتكلم إلا نادرا، له لحية كثة طويلة وشعره يقف كالسعف ووجهه دائما عليه علامات خدش وكشط، فالجروح تملأ وجهه وأظن أن معظمها بسبب الحجارة التي يقذفه بها الأطفال حين يصادفونه.. وقد قال لي بعض أهل القرية إنه سمعه يبكي عند قبر أمه، وحدثني بعضهم إنه سمعه يحكي مع أبي الفوارس صاحب العضلات المفتولة الذي يكثر من سرد بطولاته في مقاتلة الوحوش المفترسة .. وعندما سألت أبا الفوارس ما قال لك شعاع؟ قال: حتى أنت يا أبا سعد؟!!

فخجلت.. وقررت منذ ذلك اليوم أن أصمت حين أسأل عن شعاع، وأن أدعو الله أن يختار له الأحسن، وعندما كنا نسأل عن سبب جنونه كانت قصص كثيرة تنسج حول قليل من الحقيقة فقد قيل لنا إنه كان سكيّرا عرييدا يهاجم الناس في أفراحهم وأتراحهم ويسطو على مزارعهم، وأنه تزوج امرأة غصبا، أما قصة زواجه فسأحكّيها لكم في حصّة أخرى أما اليوم فسأحكّي لكم قصة من القصص التي قيلت عن سبب جنونه:

عندما عاد عيش إلى الدار وبيده زجاجة الخمر قالت له زوجته:

يا عيش، ابنك الكبير مريض جدا وهو بحاجة لطبيب!

- فليحضر لأراه!

ذهبت الزوجة لاحضار ابنها وهي تنادي يا محمود يا محمود تعال ليراك أبوك؟ ولكن محمودا لم يجب فرفعت صوتها وأعادت النداء ولكن محمودا لم يجب فذهبت إلى فراشه وصرخت صرخة هزت القرية؟

تجمع الناس في بيت عيش إمام المسجد وأبو الفوارس وأبو إسماعيل الحكواتي وجيرانه، قال عيش لهم زوجتي وابني لا أعرف ما بهما، نزلت جموع المواطنين عن المقبرة وأسند رجلان أبا الفوارس وأوصلاه إلى بيته.. وما إن دخل الباب حتى ارتمت ابنته على الأرض وهي تبكي وتصبح فقد مات ابنه الثاني

خرجت القرية كلها في جنازة ابن عيش الثاني والحزن والإشفاق على عيش يمشي مع خطاهم وما إن أنهوا دفن الولد الثاني حتى سمعوا صراخا عميقا عاليا يخرج من بيت عيش؛

قال رجل من أبناء القرية: ابنه الثالث مات

فندافع رجال القرية لحفر القبر الثالث ودفن الميت...

نزل الرجال عن المقبرة تعبين فقد كان يومهم كله دفن وصلاة جنازة.. وما إن وصلوا مضافة القرية حتى سمعوا صوتا يهز الأفق وصراخا يفجر ما في الأعماق فقد مات ابن عيش الرابع...

قال لي رجل: عندما دفن رجال القرية الولد الرابع بعد صلاة المغرب ونزلوا إلى المضافة لم يك عيش معهم فقد سرقه شعاع وأخذ عقله وروحه ومنذ ذلك اليوم وهو يركض في الطرقات...

قال أحد الطلاب والحزن باد على وجهه: ولم مات هؤلاء الأطفال وكيف، وأين الأطباء والطب؟

هز أبو سعد رأسه وقال: يا بني في قريتنا سكن الموت في كل بيت وأكل من أولادنا

خيارهم.. وخرج من الصف وهو يعد العدة لحصة الإشغال الثانية

في الصباح التالي

البرغي

علق ذلك البرغي اللعين في منخر سعد السعود الطفل المشاكس الذي دوخ الحارة كلها بحركاته الشيطانية، فمع أن عمره لم يتجاوز السنوات الثماني إلا أنه كان كتلة من الدهشة وكسر التوقع، وعبثا حاولوا إخراج البرغي ولكن محاولاتهم كلها باءت بالفشل، مما أدخل الرعب إلى قلب أمه فبدأت بالصراخ والاستنجد فهب أبو الفوارس من مرقده كالسهم وتناول سعد السعود من رأسه وقلبه رأسا على عقب وبدأ بخضه وبهزه ولكن دون جدوى، ...

وصل سعد السعود إلى المشفى وهو يقطر خوفا وقلقا ولما دخل الطبيب المتشح بالبياض وبيده ملقط طويل ظن سعد سعد أنها نهايته فمألاً المستشفى بالصراخ والبكاء وانحالت عليه العيون تتفحص سبب بكائه

أما لم وضع هذا البرغي في أنفه فهو نفسه لا يعرف ولذلك كان يبهت عندما يسأله الطبيب عن كيفية دخول هذا البرغي إلى أنفه... ولا يجب..

وتذكر أم سعد وهي تراقب الطبيب كيف أنه قبل عامين أيقظ صراخها الجيران بعد أن رأت فم سعد السعود وقد امتلأ بالحبر الأرزق وعندما سألوه لم فعلت ذلك أشار إلى منصور الطفل الأصم الأبكم، الذي أقسم بالله إنه لم يفعل وتشنج وفتح عينيه نافيا

وسعد السعود هو عينه الفتى الذي دخل قن دجاج جاره أبي أسعد وذبح الكتاكيت التي فيه كلها وحاول الإمساك بالديك الأحمر ليذبحه لكنه تعرض لهجمات قوية شرسة من الديك والدجاجة اضطرته للهروب وترك القن

أما لم يناديه أهل القرية بسعد السعود المقرود فذلك بسبب ما فعله بالحمار التي كان يحمل عليها أخوه الماء من النبعة، فقد استغل سعد السعود نزول أخيه إلى نبعة الماء وقام بوخز الحمار في مؤخرتها وخزة قوية موجعة أغضبته وهيجتها فصارت ترفس في كل اتجاه..وقد أصابت إحدى تلك الرفسات جبهة سعد السعود فطيرته إلى أسفل عين النبعة ليتدحرج كالبرميل على درجاتها ودمه يتناثر في كل اتجاه....

أما أبو الفوارس جار سعد السعود فكان أكثر من تأذى من شيطنة هذا الولد وعجيب فعاله وغريبها، فكان في كل مجلس يتحسر على شجرة الرمان التي لا يبقى سعد السعود من حباتها حبة. ويفرك أبو الفوارس يديه بقهر كلما تذكر أرابنه التي قتلها سعد السعود بالمقدونس، وكان يتبع كل حديث عن سعد السعود بعارة "الله يوخذه ويخلصنا منه"!

كان أهل القرية كلهم يخافون مما سيقدم عليه سعد السعود، فما إن يخرج من البيت حتى تراقبه العيون وتتابع خطواته، وتنظر إلى حيث يتجه وتتجه إلى حيث يتجه فهم إلى اليوم يعانون من النار التي أشعلها في قطائن المنزلة، النار التي كادت أن تحرق القرية كلها حين امتدت إلى حقولهم وأتت عليها كلها، ، ولذلك كان يسأله الجميع إلى أين أنت ذاهب يا سعد، وماذا تفعل يا سعد، وقد تعود سعد هذين السؤالين كما تعود أن يقول لهم حين يسألونه: سأذهب للجلوس على صخرة القمر. وتظل العيون تراقبه حتى تتأكد أنه قد جلس على تلك الصخرة

كانت نساء القرية ترى أن أم سعد هي من أورث سعدا هذا النشاط وهذه القوة وهذه الشيطنة، فكن يقلن دائما: " حظ الجرة على ثمها " فهن يذكرن جميلة الطفلة التي كانت تحشر الذئب في زريبة البقر وتقتله، وتمسك الأفعى كما يمسك النسر فريسته، ويذكرن كيف أنها في أحد الأيام

أنقذت القرية من الضبع الذي كان يهدها، فقد نصبت له شركا مكينا أوقعته فيه، وظلت القرية

سنوات طويلة تقول جاءت صائدة الذئب وراحت صائدة الضباع

في ظهيرة ذلك اليوم

الشاعوب

مستشفى رفيديا مكان تختفي فيه الكثير من القصص والحكايات وتتوقف عنده كثير من الذكريات
لتلقي التحية وتسقيها العيون دمعة من فرح أو من حزن، وهو المكان الذي حملها إليه أبو سعد
عندما أفلت الشاعوب من يدي أبي الفوارس واخترقت أسنانه فخذها

قال الطبيب: مجنون؟

قالت أم سعد: والوجع يسحبها بعيدا عن الواقع: لا لا، هو جرّه غناء الحصادين فصار يرقص
والشاعوب بيديه يلوّح به ويراقصه فأفلت من بين يديه وأصابني!

قال أبو سعد وهو يحاول أن يكتم غضبه وألمه وحزنه: شوف الحرمة يا دكتور!! غمضت عينيها!!

قال الطبيب بغضب: يرقص.. آه يرقص، وما كانت النتيجة رجلٌ معطوبة، يعني قد تصابين

بالشلل!

لكن أم سعد لم تجب فقد دخلت في غيبوبة أربكت الدكتور والحاضرين

وبدأ أبو الفوارس يضرب أخماسا بأسداس

في ليل كانوني

في بيتنا

...تقومنا حول أمي فحدثتها عن الجنيات والعفرات والغول ساحر مثير للدهشة قالت وهي تنظر في عيني لترى كم تستطيع أن تؤثر في ولد ألف العفاريت فهو منهم، وأعجز المشكلات فهو سببها سرحت قليلا وقالت: سأحدثكم اليوم عن ليلي الطويلة قالت وهي تسحب من أعيننا كل لحظة شاردة وكل حركة بعيدة عن السطر حتى أخذت منا أنفاسنا:

ليلى الطويلة هي البنت الحلوة ذات الشعر الطويل والعينين اللوزيتين.. كانت تسكن في بيت جدتها في قرية على أطراف وادي القمر حيث تسرح الغزلان وتمرح ويطير الحمام ويرقص البط ويسبح...

مات أبواها بعد المعركة المعروفة بمعركة الليل البهيم حين هجمت الذئاب على القرية، واستباحات منازلها وحقوقها وهب الرجال والنساء للدفاع عن أرضهم وأملاكهم ودوابهم.. كانت ليلي تحب الوقوف كل صباح على أطراف الوادي لتشاهد الطيور وهي تغوص في الماء وتخرج منه وهي تحمل في مناقيرها أسماكاً صغيرة متراقصة كان يطربها ويسعدها أن ترى الصقور وهي تحلق في السماء وتغوص بسرعة عظيمة في الماء. ومع أنها فقدت أبويها إلا أنها لم تفقد روحها المتفائلة وعزيمتها القوية وبقيت محافظة على جمال طلتها محاولة أن تبقى بسمتها النورانية متفدة على شفيتها...

وكان أهل القرية يحبونها حباً جمّاً، ويحرصون على المرور من جانب مكان سكنها لإلقاء التحية والسلام عليها والاستماع إلى صوتها العذب وأحاديثها المسلية، وكان شباب القرية يمنون أنفسهم بالزواج منها، ويتنافسون لنيل رضاها.

نظرت أمي إلينا ونحن نمتص حلاوة سيرة تلك الفتاة، ثم تابعت حكيها: ..وقد انتشرت أخبارها الطيبة في القرية وفي القرى المجاورة وقد سمعت الساحرة شلشات! نظرت أمي إلى أسئلة في عيوننا متلاطمة، وقالت: لا تعرفون شلشات، سأقول لكم من هي، هي ساحرة شريرة قاسية الملامح تستطيع نصب الشر بيوتا، وقلب الفرح إلى حزن وقتل كل نظرة فرحة في عيون من حولها، ثم تابعت حكاياتها: سمعت هذه الساحرة عن هذه الفتاة الجميلة، وعن حب الناس لها فثارت غيرتها فقررت أن تتخلص منها وأن تبعد الناس عنها وتبعدها عن الناس، فألقت على ماء الشرب تعويذة الساحر المنتقم وصبته ليلى لتشربه في ليلة ليلاء قمرها اختبأ خلف السواد والحلكة، ولما شربت ليلى الماء المنقوع بالتعويذة السحرية نامت من فورها، وفي الصباح نظرت في المرآة فوجدت أن رجلها قد وصلت حتى أعلى المرآة، فتعجبت وصرخت فقامت إليها جدتها ورأت ما صارت عليه حفيدتها من طول وعظم جسم فعرفت أن الساحرة دست ليلى تعويذة العذاب، وألقت سحر الليل البهيم على روحها...

كانت الساحرة معروفة لدى الجدة فقد سبق أن سحرت كثيرا من أبناء القرية ولكن سحرها هذا عجيب غريب لم تعرفه من قبل، ولا سمعت عنه، فسألت عن علاجه القاسي والداني حتى جاءتها الأخبار عن فتاة تعرضت لمثل ما تعرضت له ليلى ولم يشفها إلا وردة الحياة في جبل الغيلان قرب بركة الشيطان بعد الوادي الأحمر فأخبرت الجدة ليلى الخبر....

قالت أمي لحسن ابن أخي الذي تعلق بها وهي تحكي لنا عن مغامرات ليلي الطويلة ومشوارها من أجل استعادة طولها: ولك خفت من الوادي واللي فيه، كيف بكرة بدك تطرد اليهود من داركم، آه كيف؟

وبدأت تحكي لنا كيف خططت ليلي لاجتياز الوادي للوصول إلى الوردة الخضراء لتسترد طبيعتها: عرفت ليلي أن التخلص من التعويذة وفك السحر الذي يربطها ويجعلها تطول قدماً في كل يوم بيد حارس المغارة أبي رجل مسلوخة، وأن هذا المسخ له قوة جبارة فهو قادر على حرق كل ما تراه عيناه من نظرة واحدة، وبإشارة من يده تتسمر الأشياء وتتصلب، وهو قادر على الطيران بسرعة البرق.

وعرفت ليلي أن المغارة موجودة في غابة الجحيم بعد الوادي الأحمر ووادي الذئاب وبحيرة الدم فقالت لجدتها سأذهب لقطف تلك الوردة فقد صار طولي متعباً لي وللناس، ولم تحاول جدتها منعها من الذهاب أو إقناعها بعدم البحث عن الوردة الخضراء التي بها فك السحر ولكنها حرصت على تزويدها بما يقويها ويجعل مهمتها أسهل.

قالت لها: يا بنتي: دربك خضرا، وإياك إن ذهبت أن تعودني من غير الوردة فقد صار طولك وجسمك لا يتناسبان وحياة الناس..

حزمت ليلي أمتعتها وحملت كل ما جمعه لها أهل القرية من قماش وثياب فقد كانت تطول في كل يوم قدما حتى صار طولها من طول شجرة السرو الشامخة أمام بيتها قالت لها جدتها: يا بنتي،

احذري من ثلاث واحرصي على ثلاث

قالت ليلي: مم أحذر يا جدتي؟

قالت الجدة: احذري من الليل إذا عسعس، والمارد إذا تنفس، ولا تجالسي السراب إن بدا لك في

وجه الفرح

قالت ليلي: وعلام أحرص؟

قالت الجدة: احرصى على وضع علامات على طريق الرمل، والعطف على المسكين الذي يلقيه

الريح على شفير الوادي وسقاية الطفل الذي يزحف على بطنه عند حافات النهر الأحمر

ومشت ليلي الطويلة وجازت القفار واجتازت الأنهار

نظرت أمي نحونا ورأت علامات الترقب والانتظار قد استوطنتنا فتوقفت عن الحكى فصرنا نرجوها

أن تكمل وهي تتمنع وتقول: تعبت وغدا سأكملها لكم ولكننا أجبرناها على مواصلة الحكى:

..وصلت ليلي وادي الذئاب الحمراء، وهو واد عميق سحيق تسكنه الذئاب الضخمة المفترسة

والأفاعي القاتلة الكبيرة والنسور الجارحة والعناكب العملاقة وقفت على شفير الوادي بقامتها

الطويلة الضخمة فرأت كم هو واسع وعميق، وسمعت أصوات الحيوانات وهي تمارس لعبة الموت

حيث يأكل القوي الضعيف، وأحست بها وهي تختبئ بين أزواره تترقبها وتراقبها وتقول بصوت

واحد:

انزلي انزلي يا طويله عندنا عندنا يا جميله

سوف نعطيك الأمان وتمري في سلام

يا طويله يا طويله

إننا نحن الذئاب لسنا نكذب كالكلاب

فاسمعي منا الجواب يا طويله يا طويله

فقلت لنفسها: كيف ستجتازين يا ليلي هذا الوادي، وفيه كل هذه الذئاب الضخمة المفترسة،

وهذه الأفاعي القاتلة الصارطة الخانقة العاصرة السامة المخيفة؟

وتابعت أُمي تلاعبها بأعصابنا وتحكمها بعيوننا ورسمها لأفكارنا

- بالكم، كيف بدها ليلي تقطع الوادي؟

قال واحد منا: تطير

وقال آخر: تقفز فهي طويلة!

وقال آخر تصنع رجلين من خشب وتجتاز الوادي

أما سعد فقال: تتركب إحدى الأفاعي الضخمة وتجبرها على قطع الوادي بها فبهتت أُمي للفكرة

وأعجبتهما وكأنها كانت مخرجها الذي تبحث عنه.. فقلت وهذا ما حصل فعلا، إذ لم يطل مكث

ليلي على حافة الوادي وهي تفكر في طريقة اجتيازه، وقطع مفاوزه حتى هاجمتها حية ضخمة

بسبع رؤوس، لها زعانف وأجنحة، وقرنان كأنهما سيفان.

ونظرت أُمي إلى وجوهنا المنقوعة بالترقب وصارت تسيل على الحية من وصفها المخيف فتحدثت

عن قوتها، وقوة ضربتها، واتساع فمها

ولما ارتاحت لما دخل قلوبنا من الخوف والتلهف والتشوق لما سيأتي بدأت بوصف القتال الذي

دار بين الحية وليلي:

كانت ليلي في تلك الليلة قد طالت أكثر وقويت أكثر حتى صار طول ذراعيها سبعة أمتار

وعرضهما ثلاثة أمتار وفيهما قوة عجيبة فما إن أمسكت الحية من عنقها حتى عصرتها بأصابعها

فصرخت الحية من الوجع قائلة أنا داخل على الله ثم عليك لا تقتليني، ارحميني!

فقامت ليلى إلى شجرة عالية ضخمة وربطت الأفعى إليها وقالت لها غدا لنا حديث أما الآن فأنا مشغولة بالبحث عن طريقة لاجتياز هذا الوادي وبعد تفكير عميق نامت ليلى وجاءها في المنام صوت قال لها:

ليلى يا ليلى أوعك تبكي

براس الحية هيَّها بتشكي

فعرفت ليلى أن الصوت الخيّر يطلب منها أن تركب الحية لاجتياز وادي الذئاب فأمسكت عنق الأفعى وعصرته بقوة بيدها الضخمة، وقالت لها:
اسمعي يا نسناسه نادي خواتك هذي الخلاصه...

ليلى الطويلة وما باليد حيله بدها تقطع الوادي هذي الليله وإن ما اجتني وقدمت الطاعة رح أعصرك بعد ساعة

فقالت الحية: وما تريدن؟

قالت ليلى: نادي لي بقية الحيات ليحملنني إلى طرف الوادي الأحمر وإلا...

ففتحت الحية فمها وأبرزت أنيابها وأصدرت فحيحا عجيبا غريبا فجاءت الأفاعي نحوها من كل صوب وحذب ومعها أهلها وعشيرتها.

تزاحفت الحيات نحو مصدر الصوت بألوانها المختلفة وأطوالها المتفاوتة وأحجامها الضخمة فقالت

ليلى لهن وهي تمسك الحية أم سبع رؤوس من عنقها:

هذه التي بين يدي تعرفونها وقبل قليل كنتم تسمعونها؟

قالت الحيات: نعم هي ابنتنا وحيبتنا

قالت ليلى: فإنها ستكون جثة هامدة وعلى الأرض قطعة من لحم جامدة بلا رأس ولا عينين ولا

لسان ولا قرنين إن لم تفعلوا ما أطلبه منكم

- وما تريدان يا طويلتي الإنس؟

- أريد أن تحملوني وإلى الضفة الأخرى من الوادي، أن تنقلوني من هنا وأشار إلى موطن

قدميها، إلى هناك وأشارت إلى الضفة الأخرى من الوادي! وشدت على عنق الحية

فصرخت الحية صرخة هزت الآفاق بفحيح نفرت منه وحوش الوادي...

وافقت الحيات على حمل ليلى إلى الضفة الأخرى وقد تطوع لحملها مجموعة من الحيات الضخمة،

ومشين بها وهي تمسك الحية من عنقها تشده بيدها إن رأت في زحفهن تراخيا أو تباطأ، وتهددن

إن هن تكاسلن أو تباطأن بقتلها وسحق رأسها، فجزن بليلى وادي الذئاب وحفرة الموت، وساحة

الذئاب ورمال الجحيم ولكنهن رجوتها أن يكون آخر مشوارهن معها ساحة النسور وقلن لها: ذاك

مكان موتنا، وفيها ألد أعدائنا لا يرأف بنا منهم راحم فاتركينا يرحمك الله!

وما كادت الأفاعي تنهي رجاءها وتوسلها حتى هجم نسر ضخم على حية من الحيات وكاد

ييطش بها لولا أن ليلى أمسكته من رجله وشدته إلى الأرض فإذا هو كالجلبل وجناحاه يمتدان

كسهل واسع وله ساقان من حديد ومخالب كأنها السيوف، فتعجبت الأفاعي من قوة ليلى

ورجوتها أن تطلق سراحهن...

نظرت ليلى إلى النسر عجيب الخلق الصلب المنحوت من صخر وصوان، وقد فتح منقاره الواسع

ليؤذي ليلى ويقتلع عينيها فلطمته بكفها لطمه كسرت منقره فصار النسر يبكي ويصيح:

اتركيني اتركيني يا صبية اتركيني

بانظاري في ديارى سبعة منهم صغاري

فارحمهم وارحميني

نظرت أمدى إلى الوجوه اللى امتلأت بالعيون وهى تتابع حركات يدها، وتنفعل مع تعابير وجهها ورسوم الغضب والقوة والدهشة اللى ترتسم عليه وهى تتحدث وتحكى فأسعد قلبها ذلك فتابعت حكايتها:

فكرت لىلى وقالت: هذا النسر سيفيدنى أكثر من هذه الحيات فهو يستطيع الطيران سأجعله وأهله يجتازون بى وادى الجحيم وبركة الدم ويوصلونى إلى المغارة فهو أضخم وأقوى، طلبت من الحيات التوقف والتراجع فتوقفن وتراجعن ثم قالت للحية الأسيرة اذهبى من هنا، هيا! وإياك أن تعيدى الكرة معى حين أرجع وإلا.. وانسحبت الحيات بسرعة ورشاقة، وشدت لىلى النسر من ريشه وأمسكت ساقيه وقبضت على عنقه بأصابع يدها فقد كانت طالت حتى صارت كل إصبع كخنخلة، وشدت عليها بقوة فصاح الطائر متوجعا شاكيا باكيا، قالت له: لا تخف أنا لن أمسك بسوء، ولن أجعل لحمك طعاما للذئاب، ولكن عليك أولا أن تعمل ما أقوله لك وأن تكون مطيعا! نظر النسر الضخم إلى وجوه ذئاب ضخمة قد فتحت أفواهها وسال لعابها تنظر بشغف وحب وحسرة إلى لىلى والنسر، فقال لها والخوف يحمله: وما طلبك؟ فقالت وهى تشد بأصابعها النخلات على عنقه: أريدك أن تدعو أهلك ليحملونى إلى جبل الغيلان عند بركة الشيطان، فوافق النسر وهو يصيح، وصار ينادى بصوت غريب عجيب هز الآفاق، وما هى إلا لحظات حتى كانت النسور تحاصر لىلى من كل اتجاه وتقرب منها لتفترسها، ولكن لىلى شدت على عنق النسر الأسير فصاح، فتوقفت النسور، فقالت لىلى للنسر الأسير: قل لهم أن يفعلوا ما أمرهم به

وإلا قتلتك شر قتلة، فقال النسر حسناً حسناً! وصرار يتكلم معهم بأصوات النسور وهي تتقافز

وتهز رؤوسها وتحرك أعناقها في حوار عجيب غريب

وبعد لحظات قال النسر الأسير: لقد وافقت على حملك إلى جبل الغيلان ولكن بشرط؟

قالت ليلي: لا شروط!

قال النسر الأسير: الشرط أن يضعنك على أطراف وادي الغيلان؛ فإن الغيلان تعد النسور من

غذائها الألد، ولا يرضيك أن نكون فريستها السهلة ونترك أولادنا بلا معيل..

أشفقت ليلي على النسور ووافقت على الشرط.

حملت النسور ليلي فوق الوادي الأحمر وما فيه من نار ولهب ووحوش تثير العجب، بأشكالها

الكثيرة المتنوعة وصورها الكثيرة المخيفة المفزعة منها ما هو كالسحالي ومنها ما يشبه الأفاعي

ومنها كأم أربعة وأربعين ومنها ما لا يشبه شيئاً ولا يخطر على بال بشر .. حلقت النسور

بليلى عاليا في السماء وعلى الرغم من ضخامتها وطولها إلا أن النسور استطاعت نقلها من

فوق الوادي وبحيرة الدماء إلى جبل الغيلان ووضعها على أطراف الجبل، والعودة بسرعة إلى

الوادي الأحمر خوفاً من الغيلان

حصّة الإشغال ٢

في السجن

ما إن دخل أبو سعد غرفة الصف حتى أحاط به الطلاب من الجهات كلها يطالبونه بإكمال قصة الشعاع

قال أبو سعد وهو يعرف أن القصة ستطول:

وقال رجل آخر: إن سبب جنون عيش هو السجن ففي يوم النكسة حاصر الاحتلال القرية من كل الجهات وجمعوا رجال القرية في الساحة أمام المسجد قالوا لهم: عرب كلاب حمير ناموا... أرض... فانبطح رجال القرية على الأرض إلا عيش الذي ظل واقفا معلنا التحدي فهجم عليه الجنود وضربوا كل جزء من جسده فكسروا يديه ورجليه ورأسه وأسنانه وفكيه وكتفيه لم يبقوا له عظمة سليمة ولم يكتفوا بذلك وإنما ألقوه على سطح مدرعة وطافوا به شوارع القرية، ثم أخذوه وظل عندهم عشر سنين لا نعرف عنه شيئا، ولا نسمع عنه خبرا وكلما سألناهم عنه قالوا لا نعرف عنه شيئا ارحلوا من هنا. وحتى الصليب الأحمر لم يعرف مكانه وفي يوم من الأيام رآه أبو الفوارس في حارة الياسمين على بوابة الخان فركض إليه واحتضنه ولكن عيشا ظل جامدا ولم يكثر له كأنه لم يعرفه، ومنذ ذلك اليوم وهو في الحارات والشوارع يطارد اللاشيء ويركض ويصق ويضرب ويضرب

استوقفته يوما على باب بيتي

- عيش عيش كيف حالك؟

ضحك عيش وهز رأسه...

- عيش، أنا أبو سعد! وما إن قلت اسم سعد حتى بدأ ينتفض ويضرب رأسه بالجدران

وينفخ ويزبد

- عيش عيش، ما بك أنا صديقك؟!

ولكن العيش ما عاد يستطيع التمييز بين اليمين واليسار والعدو والجار فقد كانت الدنيا كلها ترقص في دماغه فتهزه وتفقد القدرة على التركيز والتمييز...

قيل إن جنود الاحتلال في السجن حشروه في زنزانة انفرادية وسلطوا عليه الضوء الساطع ساعات طويلة

وقيل إنهم ضربوه على رأسه بالعصي حتى أفقدوه عقله

وقيل إنهم ربطوه بأسلاك الكهرباء ومرروها في جسده لتعقه وتحرق خلاياه

وقيل إنهم كانوا يتكونه في العراء في أيام البرد عاريا حتى يفقد القدرة على الوقوف
وقيل إنهم كانوا يتكونه في العزل الانفرادي أياما يمارسون عليه كل ما يجد في عالم التعذيب..
وأكد أكثر من سجين أنهم كانوا يفعلون ذلك كله لأكثر الأسرى وبخاصة في مرحلة التحقيق...
أما الحقيقة فقد رواها لي لسانه وخوفه وكوايسه..ففي يوم من أيام الشتاء القاسية الملامح الباردة
الساعات فاجأني العيش وهو يرتعش على عتبة الدار، كان مبلا مصفرا متجمدا لا يستطيع
الحراك، أدخلته إلى البيت، إلى جانب الكانون، ومسحت الماء الذي بلله وغطيته بما وجدت من
ملابس حتى شعر بالأمان فنام..

قالت لي أم سعد: كن حذرا فهو لا يميز ولا يعرف ويفهم!
قلت: الستير هو الله

في الليل انتفخ الهواء في الغرفة التي ينام فيها العيش فقد امتلأت بصرخات حارة من فم العيش،
وضجت بأهاته وتأوهات وأنيته واستغاثاته ورفضه ورجائه
كان يقول كلمات كثيرة: الكهرباء، الماء، العصا، الموت، ...وكلما صحا من النوم لجأ إليه، فقد
كان ملاذه من خوف شرس سكنه وذكريات تعذيب أعملت في روحه مبضعها...سمعته يقول:
الكهرباء تصعقني تحرقني تؤلني..ويقول أشعر بدغدغات الثلج وقرصاته بين عيني ويقول: لا تضربني
يكفي رأسي رأسي... ثم ينتفض ويفتح عينيه ثم ينام..ويقول: كلاب كلاب كلاب... ويقول:
محمود محمود محمود ثم يبكي

أعددت أم سعد لنا الشاي، فقد كان الصباح يستحق هذا الاحتفال فقد كانت ليلة لا تُنسى مع
عيش الشعاع..

سألته: أتعرف أين أنت؟

نظر إلي بعينين من ألم وحزن

قلت: أنا أبو سعد

قال: سعد سعد سعد! وصار يملأ ممرات الصوت في القرية

لا أذكر أن لسعد معه قصة تذكر مع أن لسعد قصصا كثيرة مع أهل القرية،

قلت: له ما به سعد؟

فارتج واهتز وانكسر عمودا من صرخة تقول: لا لا لا

فعرفت أن لسعد معه قصة وقررت أن أعرفها وأعرف مدى الأذى الذي ألحقه هذا الولد الشقي
بهذا المسكين..

مضى الشعاع في سبيله وهو يحاول أن يحمل رجليه على الركض، وركض في ممرات القرية الطينية الموحلة

قيل لي: إن سعدا ابنك قد ربط رجليه ومنعه من الركض... وقيل لي: إنه رماه بحجر على جبهته جعلته ينطق كلمات كثيرة لم يعرف معناها أحد. وقيل إن سعدا يعطف عليه ويحنو ويطعمه في كل صباح من طعامه الذي يأخذه إلى المدرسة وأنه الوحيد الذي يستطيع أن يجلس إلى جانبه ولا يؤذيه...

أما الشعاع فبقي يطارد روحه في حارات القرية أياما وسنوات ثم اختفى فجأة، ولم يترك أهل القرية زاوية فيها إلا فتشوها عنه... الآبار والكهوف والوديان والحفر... ولكنهم لم يعثروا عليه، وقيل في اختفائه الكثير فقد أخبرنا صاحب الدكان أن سيارة عسكرية استوقفته فرفض، فنزل منها الجنود الغاضبون وأهملوا عليه بالضرب ثم أخذوه معهم.

أما الحجة آمنة بائعة التين التي كانت تقطع المسافات بين نابلس والقرية في كل صباح على حمارتها المحملة بسلال التين فقالت: كان أمامي المشهد.. رجل نزل من السماء بثوب أبيض وشعر أبيض ولحية طويلة بيضاء، ووجه نوراني وعينين من لهب و نار، رفعه من رقبته وامتصه واختفى. ولما سألتها: وكيف امتصه: قالت كما تمتص الأرض العطشى الماء...

والحق أن آمنة بعد أن روت لأهل القرية القصة بأيام فقدت هي الأخرى عقلها، وربطها أهلها في العلية..

قال أبو سعد وقد رأى علامات الدهشة على وجوه الطلاب.. وأما الحقيقة فهي مع الشعاع الذي لم يعد بعد..

في تلك الليلة

قالت أمي: كان منظر الجبل من بعيد مرعباً مخيفاً، وتصدر منه أصوات كأنها الموت، وتقف على تربته القائمة الجافة أشجار من صوان كأنها رؤوس الشياطين، وعلى الجبل كانت الصخور الكالحة المألحة الجارحة تنتصب كالموت في فم المحروق..

مشيت ليلي باتجاه قمة الجبل حيث بركة الشيطان وما كادت تخطو خطوات قليلة حتى قذفتها الصخور الضخمة الكالحة المألحة بحمم من لهب ونار وحجارة فاحتمت منها بالأرض ووقت نفسها بالتراب، وفكرت في وسيلة لوقف هذا الهجوم الصخري وعن شيء يوقف هذا السيل الناري...

تذكرت ليلي جدتها حين حذرتها من الغيم إذا تكدس فعرفت أنها تقصد هذه الصخور فقالت: سأصنع لي درعا من حجارة هذا الجبل فلا يفيل الحديد إلا الحديد فتراجعت إلى الشاطئ وبدأت تنحت لنفسها درعا ضخما من حجارة بركانية تكومت عند الشاطئ ولم تمض أيام قليلة حتى كانت قد تحصنت بالحجارة وتدرعت بها فصعدت الجبل وبدأت المعركة بين حجارة العفاريت النارية والحجارة التي حملتها ليلي لتدافع عن نفسها وتصد هذا الحقد الأسود الذي يهاجمها بعنف.. مشيت ليلي الطويلة في درب من النار، وقاومت وهاجمت ودافعت حتى وصلت التلة حيث بركة الشيطان الأزرق، التي يحتضنها غار ملتهب متحرك كأفعى من حديد ونحاس وصخر ورصاص يحوي البركة كأنه أم تحضن ولدها وتحميه من الخطر... له باب لا يفتح إلا بكلمة من أبي رجل مسلوخة صاحب العينين الناريتين والإشارة الجمدة فتذكرت حديث جدتها عن الليل إذا عسعس فعرفت أن جدتها تريد منها أن تفكر

قبل أن تقدم فتأنت قبل أن تطلب من الكهف أن يفتح أبوابه وفكرت بما يكبل هذا المسخ الشديد صاحب الرجل المسلوخة وظلت حائرة إلا أن رأت العنكبوت ينسج لفريسته الخيوط فقالت هذا هو العمل المظبوط فأعدت من ملابسها صورة إنسان وصورة حيوان وصورة صخرة عظيمة وجلبت صخرة من قاع الوادي ومن بقايا الصخور التي هزمتها ودمرتها وصنعت تمثالا ضخما

وقالت: أصفر وأضرب الباب بالحجارة وألتصق بالجبل فيخرج المسخ فيظن الشجر والحجر أعداءه فيفرغ فيهم غضبه وشره وعندها أضربه بحجارة من غضب فأطحن رأسه وأدخل الغار لأقطف الوردة من بركة الشيطان

فضربت باب الغار بحجر ضخم والتصقت بالجبل وانتظرت لكن لمسخ لم يخرج، فأعدت الضرب مرات حتى خرج من الغار كبحر هائج مائج وصار يصرخ بصوت كالزلازل:

مين جاي يتحداني رايح أقطعه باسناني

وكشف عن أنياب وأسنان كالسكاكين

وصار يضرب بناره الحارقة التماثيل ظنا منه أنها المهاجمة فكسرها وأحرقها وجمدها

ورأت ليلي الطويلة أن المسخ الشيطاني قد أتعب نفسه في التنفيس عن غضبه فأخذته على

حين غرة فقد ضربته على رأسه فهوى يتدحرج من علٍ إلى البحر مشتتلا محترقا ملتها متوهجا

حتى أحرقت ناره حجارة الجبل المتكسرة فأسرعت ليلي إلى الغار قبل أن يغلق أبوابه وقطفت

الوردة وخرجت.

وهمت بأكل الوردة لولا أنها تذكرت وصية جدتها وحديثها عن النار التي تلقيها الريح فعرفت أن للغار ماردا يجب أن ترضيه وإلا لاحقها إلى كل مكان فتساءلت في نفسها كيف أرضيه كيف كيف؟

وبينما كانت مع أفكارها شاردة وفي حيرتها غارقة سمعت صراخ طفل صغير فركضت إليه ومسحت على رأسه وأطعمته وحملته بحنان وقبلته فتحول الطفل الصغير فجأة إلى مارد ضخيم حمل ليلي بين يديه وقال لها: شببك لبيك عبدك بين ايديك قالت لا أطلب شيئا منك ولم أفعل لك شيئا إلا لأنني أريد ذلك ولأن الله أمرني بالعطف والحنان فقال لها المارد:

يا ليلي كلي الوردة الآن وسألني لك ثلاث أمنيات قبل أن أوصلك للبيت وأحرق الساحرة التي سحرتك ودبرت لك كل هذا العناء وأعيدك كما يجب أن تكوني

قالت ليلي: ...

سألت أمي: ما رأيكم ماذا ستطلب ليلي من المارد؟

قال أحدهم: ستطلب عوامة وكنافة فضحك الأولاد!

قالت بنت: ستطلب عريسا على حصان أبيض

قالت أخرى: ستطلب قصرا كبيرا ضخما

قلت: ستطلب أن يزول الاحتلال؟

نظرت أمي إلي وقالت: قد تفعل قد تفعل! وانحنى لتدثر مجموعة غارقة في النوم والدفء والحياة

في مساء آخر

تذكر سعد اليوم الذي تأخر فيه عن البيت ووجد أباه بانتظاره

فسأله: لم تأخرت يا سعد؟

قال سعد: لقد حبستني على طرف الشارع يا أبي جنية ضخمة أرادت التهامي تمثلت لي وحشا
ضخما بذيل ومخالب ورأس ذئب وفكي أسد، ولولا أنني شاغلتها ومازحتها حتى عفت عني لما
عدت إليكم...

نظر أبو سعد إلى سعد بدهشة فقد راقه هذا العذر مع أنه يعرف كذبه، وضحك بملء فيه ثم نهزه
بالعصا على قفاه وهو يقول له: يا بن الكلب إياك أن تكرر تأخرك...

لم يجرؤ سعد أن يخبر أباه أنه يعد العدة لاستحضار الجن، وأنه جهز عدة الاستحضار وطعام
الضيف، واتفق مع مجموعة من رفاقه في الصف على الموعد والمكان..

في مجلس القرية القديم وحول دجاجة مقطوعة الرأس سرقها سعد من قن أبي الفوارس وعلى ضوء
مجموعة كبيرة من الشموع اجتمع مجموعة من الأطفال الذين لم تزد أعمارهم عن التاسعة،
وتشابكت الأيدي بعد أن أسلموا قيادهم لسعد الذي تناول من جيبه ورقة وبدأ يقرأ كلمات

متقاطعة وجملا متشابكة:

سحار بحار

نار يا حبيبي نار

اطلع اطلع كلنا هنا في الدار "

جَوَّد سعد صوته وخفضه حيناً ورفع حيناً، وبدأت ملامح الخوف على وجوه الأطفال وظنوا أنهم ملاقوا ضيوفهم من الجن وبقيت كلمات سعد تجول في المكان تلاحق الصدى المتلاطم بالجدران حتى هبت ريح قوية أطفأت الشموع واقتلعت قلوب الجالسين المتحلّقين حول الدجاجة المذبوحة ولم يفتحوا أعينهم ليروا سعدا وهو يرفع الدجاجة مرحبا بضيوفه من الجن: أهلا أهلا تفضلوا..

ووضع الدجاجة أمامه منتظرا إقدام الجن على أكلها ولما طال انتظاره ظن أن الطعام لم يعجب الجن فرحل، ونظر إلى أصحابه فوجدهم مرعوبين منكمشين أغلقوا أعينهم خوفا وفرقا فقال لهم: ويلكم لقد مر الجن من هنا وسألني لم لم يقف أصحابك في حضرتي؟

ولولا أنني أفنعتهم بأن ذلك بطلب مني لكان له شأن معكم؟ غادر الأطفال المجلس والخوف يسكن أفئدتهم وما إن وصلوا حتى ارتموا في فراشهم وأخفوا رؤوسهم، يسكنهم خوف عميق ورعب يتقافز مع أفئدتهم سألته أمه أمام الجارات الغاضبات: ما الذي جرى أمس في المجلس يا سعد؟

قال سعد: لقد اجتمعنا لاستحضار الجن يا أمي فارتعبت النساء الغاضبات وصرن يقلن بصوت عال مائج متشابك متقاطع: بسم الله بسم الله بسم الله

وهربن من الغرفة وهن يشتمن سعدا وأم سعد وأهل سعد

كان المساء هو الموعد الأصعب مع الشاكين والمتذمرين والمنددين فقد اجتمع رجال القرية في بيت أبي سعد وشكوا له حال أولادهم بعد المغامرة التي قادهم إليها سعد، وبدأ كل واحد يصف كيف نام ابنه ليلته ويصف أصوات الخوف التي ارتفعت حول سريره وهو يكابد الكوايس اللامتناهية في ليلته تلك

- يا سعد، يا لعين الوالدين، تعال يا بن الكلب!!!

فحضر سعد كالحمل الوديع يسبل عينيه، وعلى وجهه علامات استفهام كثيرة، لم ناديتني يا أبي؟ ولم يجتمع الرجال في هذا المكان وينظرون إلي بعيون كلها حقد وعجب؟

- وين كنت امبارح يا لعين الوالدين؟

- إمبارح كنت في المدرسة يا بابا!

- وبعد المدرسة يا بابا؟

- بعد المدرسة يا بابا مشيت في الشارع حتى وصلت دارنا وتغديت، حتى إسأل إمي؟

- وفي الليل؟

- في الليل يا بابا رحمت مع أصحابي لاستحضار الجن، في دار المجلس القديم، بس والله يا بابا ما

طلعلنا ولا جني مع إني حاولت وقرأت التعاويذ المكتوبة في الكتاب كلها حرفا حرفا...

فانتصب القوم غضبا وحقدا وقام أبو سعد إلى سعد بالعصا وبدأ يضربه على كل جنب وصار

سعد يتلقى الضرب من كل اتجاه وهو يقول لأبيه خلص يا بابا خلص يا بابا عمري ما رح أستحضر

الجن في دار المجلس رح استحضره هون في الدار يا بابا...

في الصباح كانت حلقات كثيرة من الرجال والنساء والصبايا والشباب تتحدث عن الجن الذي استحضره سعد، وتحدث عن الوحش الذي استوقف سعدا على طرف الشارع وكاد أن يفتك به لولا مهارته وقدرته وفطنته وذكائه

في صباح يوم جديد في الغربة

في بريد الرسائل ضوء أحمر يشير إلى رسالة من غريب غير مقروءة، خوفك يا سعد من الفيروسات منعك من فتحها قلت سأفتحها عندما تحضر سلمى فهي أختي وحافضة سري وتعرف كثيرا عن الحاسوب ومشكلاته وفيروساته، ولم ينتظر سعد حتى تبدل سلمى ملابسها المبتلة بمياه الأمطار وتعب المشوار من الجامعة حتى القرية حتى جرها من يدها إلى الحاسوب، وقال لها ما هذه الحمراء؟

قالت سلمى: هي رسالة يا عبقرى!

- ولكنني لا أعرف مرسلها!

- افتحها لأرى ما فيها!

- وإن كانت فيروس دمرت جهازى؟

- لا تخف فإن كانت فيروس سأقول لك

فتح سعد الرسالة فإذا مكتوب فيها:

اليوم هو العاشر من رمضان، أجلس في ما تبقى لنا من بيتنا في نهر البارد، في غرفة حصينة تحت الأرض، ومعى سبعة من أبنائي: خالد وسمير ومحمد ومحمود وعلي وويلي وريتنا، وما تبقى عندنا من ماء لا يكفيننا يوما آخر وبدأت أنفاسنا تختلط برائحة الجثث المتعفنة المنتشرة من حولنا في كل

مكان، وانتهينا قبل قليل من تناول آخر حبة تمر ولم يبق لنا غير الله فقد تكالبت علينا كل البنادق
في الداخل والخارج

إن قرأت رسالتي فإن هذه معجزة ورغبة من السماء أن تسجل لحظاتي الأخيرة مع أطفالي قبل أن
تدوسنا الجرافات والمدرعات وتثرنا القنابل

علياء سالم العربوش / محيم نهر البارد قبل الموت

أنهى سعد قراءة الرسالة بعد أن انفجرت في عينيه علامات الغضب والشفقة وبدأ يلقي الشتائم
باليمن واليمين

قال لسلمي وفي عينيه تعجب من هذه، وأين يقع نهر البارد؟

نظرت إليه سلمى بإشفاق: يا سعد نهر البارد محيم في لبنان للاجئين الفلسطينيين الذين طردهم
الاحتلال من أرضهم وهم يعيشون على صدقات الأمم ويعيشون حياة قاسية كلها انتظار وأمل
بالعودة إلى الأرض والتخلص مما هم فيه من عذاب

كان سعد لم يبلغ العاشرة عندما قرأ الرسالة

وبعدها تابعت إلى جهازه وأجهزة أصدقائه رسائل مشابهاة لم يعرفوا مرسلها ولم يفهموا سبب
وصولها إليهم ولكنهم كانوا يعددون مصادر تلك الرسائل كل يوم عليهم يكتشفوا ما خفي من
أمرها:

رسالة ناريمان من خيمة على الحدود الليبية المصرية

رسالة عبادي الجوهر من بغداد

رسالة أم علي الرقبة من الكويت

رسالة ریحانة السالم من محیم ریف دمشق)

رسالة خمیس الرابع من بلجیکا

رسالة رحمة الرقیبة من محیم النصیرات

رسالة السجین ٢٥ من بئر السبع

رسالة محمد سالم المسلم من سجن نابلس

رسالة سعید السعدون من سجن غزة

مجموعة من الرسائل من غیر عنوانات ومن أسماء براءة

المظلوم الأبدی

الفتاح

شهید المحراب.....

في الصف في نهار آخر

حصّة الإشغال ٤

دخلت الغرفة الصفية نظرت إلى الطلاب، أمرتهم أن يمدوا أيديهم مررت عينيك فوق أظافرهم، عدت إلى مقعدك تناولت قصفة من عرق كلمة ثابتة وقلت بها للطلاب اجلسوا وناموا لن أحكي لكم في هذه الحصّة حكاية
لم تقل لهم لم توقفت وكيف ولكنك اعتصرت لونا أزرق وعبأته في ساحة واسعة من الحقد فما زلت تتجثأ لحظة دخل صاحب العينين الزرقاوين إلى بلادنا وبدأ الواقع يتحول إلى حلقات من حكاية حمراء بطعم الفقد

في تلك الليلة اليابسة

كان المساء يانعا بأغنيات جارنا أبي العبد، الذي جعل من حياته مع البقرات نموذجاً من حب الإنسان للحيوان، كان يغني لهن ويرقص، وكثيراً ما تمنى نساء القرية لو أن هذا الغناء لهن:
فقد توزعت أغنياته على البقرات: الشقراء والحمراء والبيضاء والسوداء، وكان يعطي لكل بقرة اسماً يناديها به ويدلها به، ومن أغنياته التي ما زلت أحفظها:
يا سمك مقلي يا سمك مقلي السمرا روجي والشقرا عقلي
بدها سبانخ جبتلها بقله زعلت عليّ البنت المزبونه
وقوله:

يا شقرا ديري بالك الثور الأسمر وراك

دخيلك دخل عيونك يا الله ما أحلاك

خلقلك جوز العيون ومن نعيمو أنطاك

ويا سمرا لا تجافيني سبحان اللي سواك

وبربك لا تعادينني أنا والله بهواك

ميلي يا حمرا ميلي

وعن حبك هاتي احكي لي

ولا تقولي لي ما بربك

جيلك ما هو من جيلي

جيلك من جيل أبوي

وأنا بعمر باناتك

أبعد عني يا عمي

أبعد والله وحياتك

عمرك ما بيحمل همي

كنت أطرب لهذه الأغاني ولكن أُمِّي كانت تمنعني من ترددائها وغنائها مع أنها كانت هي ترددها
وتغنيها..

في ذلك المساء تجتمعنا حول أُمِّي والتصقنا بنار الكانون ورجوناها كعادتنا أن تحكي لنا حكاية،
وهي تمنعت كعادتها ثم بدأت بالسرد والحكي

قالت أُمِّي: هل حدثتكم عن شخبوط وطنجرة الكسل

شخبوط أرنب ظريف، وفروه نظيف، يعشق الطعام ودائما ينام، في الصباح والمساء ويكره القيام.

في الصباح يستفيق ليأكل الطعام وفي العشاء يستفيق ليكمل الطعام وبعدها ينام

أحس أبو شخبوط أن ابنه شخبوطا الظريف ذا الفرو النظيف في خطر لأنه كسول والكسل، كما

يقول حكماء الأرناب، أخطر الأمراض. نادى أبو شخبوط أم شخبوط وقال لها:

يا سحلبانه ابنك في خطر، ابنك في خطر، شخبوط في خطر

قالت أم شخبوط: ويلي، شخبوط في خطر من يهدده من يريد أن يقتله؟

أبو شخبوط: الكسل إنه الكسل يا أم شخبوط إنه الكسل ألا ترين أن ابننا كسول؟!

قالت أم شخبوط: الكسل؟! وكيف يستطيع الكسل أن يقتل ابننا؟

قال أبو شخبوط: نعم، الكسل، لقد سمعت جدنا العظيم الشاخط الشخبوطي الأكبر يقول

للأولاد الذين كانوا يتأخرون عن المدرسة الأرنبية: يا أولادي إياكم والاستسلام للكسل، فإنه

أخطر عليكم من الكلاب والذئاب والقطط

وعندما سأله الأولاد عن الكسل قال: إنه النوم أكثر من حاجة الجسم وقلة الحركة وعدم القيام بما

يجب القيام به في وقته والرضى بالواقع

نظر أبو شخبوط إلى الأفق وقال: إنه مرض يحطم الجسد والنفس، فهو داء يصيب الإرادة

ويصدئ العظام

قالت أم شخبوط: يا ويلي عليك يا شخبوط، شخبوط يا شخبوط شخبوط يا شخبوط

قال أبو شخبوط: هوني عليك يا أم شخبوط ودعينا نخطط لمساعدته وإخراجه من بين يدي هذا

الوحش المفترس.

أم شخبوط: فكر عني فأنا مصدومة... شخبوط يا شخبوط شخبوط يا ولدي

قال أبو شخبوط: دعينا نستشير حكيم الغابة

- نعم، هيا هيا!

- هيا!

سار أبو شخبوط وأم شخبوط سحلبانه من بيت الأرناب إلى مغارة الحكيم هزار على الجبل الكبير
تاركين وراءهما شخبوطا يغط في نوم عميق.

دخل أبو شخبوط وأم شخبوط على حكيم الغابة

صاح أبو شخبوط وصاحت سحلبانه: يا حكيم الغابة أنقذ ابننا شخبوط أمير الأرناب صاحب
الفرو النظيف واللسان الحلو اللطيف

حكيم الغابة: اهدأ يا أبا شخبوط وأنت سلحبانه أيها الرعديدان، وأوقف يا أبا شخبوط دقائق
قلبك السريعة الخائفة قليلا وأخبرني ما باله شخبوط؟ وما الذي أصاب هذا الأرنب الصغير؟

قال أبو شخبوط: إنه مصاب بمرض الكسل يا حكيم الغابة؟

حكيم الغابة: كم عمر شخبوط يا أم شخبوط يا سلحبانه؟

أم شخبوط: عمره عشرة أشهر، وهو دائما ينام ويكره القيام ويعشق الأحلام والطعام في الصباح
ينام وفي العصر ينام، وفي الليل ينام!!

أبو شخبوط: نعم، نعم، شخبوط يا حكيم، لا يقوم إلا للطعام

الحكيم: يا أم شخبوط اسمعي كلامي، تماسكي، تشجعي أمامي، وأمسكي بهذه الكرية وهذه

العشبية الطرية وبالمدقة اطحنها وباليدين فاعجنها وفي وعاء واسع ضعها وفوق رأسه ألقها

وأنت يا أبا شخبوط خذ هذه الكرية واضرب بها سرير ابنك الكسول وخذ هذا الكتاب.. إنه

كتاب

وضعه تحت رأس شخبوط عندما ينام.

ودّع أبو شخبوط وأم شخبوط حكيم الغابة وعادا إلى بيت الأرناب يحملان العشبة والكرة، ولما دخلا البيت أسرع أم شخبوط إلى مطبخ الأرناب لتطحن العشبة وتعجنها كما أمر حكيم الغابة وتوجه أبو شخبوط إلى سرير شخبوط ووضع الكتاب تحت المخدة وضرب رأس شخبوط بالكرة فاستفاق ليجد الكرة أمامه فتناولها وصار يركلها بقدميه ويضربها بيديه ووجد في ذلك متعة شديدة فصار يضربها ويركلها بأشد ما يستطيع ليسمع مع كل ضربة صوتا جميلا ويحس مع كل ضربة بمتعة عظيمة.

وجاءت أم شخبوط بالدواء وسقته لشخبوط فازداد نشاطه واشتد عزمه فعاد إلى الكرة يضربها ويركلها ضربات شديدة متواصلة، حتى أجهده التعب فذهب إلى السرير لينام فوجد الكتاب تحت مخدته فقرأ منه سطرا ثم سطرا حتى أكمل الصفحة الأولى ثم الثانية وهو يزداد تعلقا بما فيه من أفكار وحديث فما نام حتى أكمل قراءته.

أشرقت شمس الصباح واستفاق شخبوط الذي نام وهو يحتضن الكرة بيد والكتاب بيد وعاود ضرب الكرة من جديد وحدث أن سقطت الكرة حقل الجزر حيث كان أبوه يعمل فصار ينادي أباه كي يضرب إليه الكرة، فضرب أبوه الكرة ضربة خفيفة مدعيا أنه لا يستطيع أن يركلها بأقوى من هذه الركلة فضحك شخبوط وقال: ماذا تفعل يا أبي؟

قال أبو شخبوط: إني أجمع الجزر يا شخبوط، تعال كي أريك كيف أفعل ذلك.

قال شخبوط: أنا ألعب الآن يا أبي، هل تسمح لي أن اقتلع جزرة واحدة يا أبي؟

وافق أبو سحلوب وأشار إلى شخبوط أن تعال.

فأسرع شخبوط إلى الحقل ليقتلع جزرة، وكم كانت دهشته كبيرة عندما شاهد الجزرة تخرج من

الأرض بقوة يديه فواصل اقتلاع الجزر وهو يغني:

ما أجمل العمل سأقتل الكسل

أنا أنا شخبوط نعم نعم أجل

سأحرث الحقول وأجمع الجزر

هيا إلى العمل هيا إلى العمل

بالجد والكفاح سأملأ الصباح

وأعشق الحياة بالحب والأمل

هيا إلى العمل هيا إلى العمل

في المضافة.. في تلك الليلة

سيف بن ذي يزن

قال الراوي أبو إسماعيل: يا وجوه الخير إن الديوان تكامل جمعه! وسأكمل لكم ما صار من أمر

سيف بن ذي يزن وعكاشة العاشق

.. فقام عكاشة على قدميه، وحديد سمعه، والجنان يسعى بين يديه، وكلهم منه مندهش لما هو

عليه، وتقدم إلى المغوار صاحب الحديد والنار ديهشور ملك الأمصار ومدحه وأثنى عليه وجعل

أجمل الأشعار تمشي إليه طالبة وده وداخلة قلبه، وأشار إلى الملوك أن يكونوا منساقين عليه فهو

سفير الملك سيف بن يزن صاحب الأيادي الطائلة والقوة الهائلة والعقل الراجح والفكر الراجح،

فقال عفاشة:

اعلم يا ملك ديهشور أنني قد أتيتك خاطبا وفي ابنتك راغبا فلا تردني خائبا فقد وقعت في حب

دنهشة، وحبها في قلبي أنعشه، فجد علينا برضاك، وبموافقتك ربي يردك! وسائق عليك كل من

حضر في هذا المكان من الإنس والجنان والجواري والغلمان، وبجاه رب الأكوان والأزمان أن توافق

على زواجي منها وتصادق...

فلما سمع الملك هذا الكلام، تعجب من حشر هؤلاء الملوك الكرام، وقطعهم الجبال والآكام

ليطلبوا يد ابنته دنهشة فقام على قدميه، وفتح للقوم يديه، وقال:

أما أنتم فببتي مفتوح لكم بكل ما فيه فواجبكم كبير، وأما طلبك يا عفاشة فإنه سيسر ابنتي

نقاشه، فأنت تعرف الأصول فمشاورة البنت لازمة ومعرفة رأيها ضرورة، فلا تؤاخذني في كل

قصدي وإرادتي.

فقال له عفاشة: عين الصواب ما قلت وعين العقل إن فعلت، فادخل عليها وسلها فيني منتظر

مع المنتظرين

فدخل الملك على دهنشة، والثواني تمر على عفاشة كأنها أفاعٍ تريد أن تنهشه، وطال النقاش بين

الملك وابنته والملك وزوجته..

وكان شالوذخ في المجلس وهو وكيل الملك على مملكته من الحاضرين فلما سمع ما جرى بين عفاشة

والملك اغتاظ وانغاض فقام من فوره ومشى بسرعة حتى وصل الملكة دهنشة قبل أبيها وكلمها قبل

أن يحاكيها، وقال لها:

اعلمي يا دهنشة أن عفاشة يده طائلة وهو صاحب ملك الجان في هذا المكان، وصديق الملك

سيف بن ذي يزن ملك الصحاري والجمال واليمن وأنه جاء إليك خاطبا، وليدك طالبا وبك راغبا

وأن أباك قد جاء ليعرف رأيك فيه. وإن عكاشة قد جاء وهو يروم أن يتزوجك لتكوني له أهلا،

ويكون هو لك بعلا، وأنا أعرف أنه نعم المطلوب والمرغوب وجماله ووسامته تسلب القلوب ومعه

من المال ما يعجز الخيال، وعنده من الضياع ما لا تحيط بها عين، وعنده مما تشتهين ما يرضي ومما

تطلبين ما يغني، وهو محقق أحلامك، ومبهج أيامك، فهو ملك على كل الملوك وكل من كان منا

ملكا صار له مملوكا، ولكن، اسمعي وعي، فإن رأيي أن تفعلي الآتي وتقوليه وعلى أبيك، على

مسمع من القوم ألقيه، قولي لأبيك وافقت. والزواج منه قبلت، فالأحسن أن تجيبه من غير حجة

فهو ملكنا وحاكم علينا، وقولي على مسمع من القوم ومشهد إن لك منه طلبة، ولك دهنشة أن

تطلبي حتى تفتخري بها على بنات السادات، ويرتفع قدرك في جميع الجهات.

قالت له دهنشة: إيش أطلب منه فإنه الزواج لا بد لنا منه؟

فقال لها شالوذخ: قولي للقوم على الراس والعين، ولكنني أريد مهري منه، ومهري يا ملك الملوك شرطي للزواج، وما لي عنه غنى، فإن سألوك عن مهرك ما هو يا سيدة البنات وأنت ستكوني ملكة الملكات وسيدة السيدات وكل ما للملك هو تحت تصرفك، وكل ما على الأرض يتشرف أن يخدمك؟ فقولي أريد (ووشوشها وشوشة من ثلاث كلمات) حتى أفاخر به جميع نساء الإنس والجان وخرج شالوذخ من عندها بسرعة قبل أن يدخل أبوها الملك ويسمعه

قال الملك لابنته: يا دهنشة قد جاء ملك الملوك لخطبتك فأجيبه إلى طلبه ووافقي ولا تخالفيني الرأي فقالت له دهنشة: سمعا وطاعة يا أبي الحبيب، وأنا لأخالفك ولا أجادلك فليس هذا ما ربيتني عليه وأوصلتني إليه ولكن يا أبي أريد أن أطلب منه طلبا يكون مهري، أسند به غرتي ويعينني على نوائب دهري

فقال: الملك حقك حقك!

فخرج إلى الجمع الغفير وقال بصوت عال يا جماعة الخير وافقت دهنشة وأسعدها الطلب وأفرحها النسب، وقالت إن عفاشة نعم الزوج والقرين، ولكن لها مطلباً تطلبه من ملك الملوك وتريد أن يكون تلبيته وإجابته مهرها، فقال عفاشة: فلتطلب وتتدلل ولتعجز في الطلب فإنني بما راغب وطلبها محاب ولن تقف دون تحقيقه وتلبيته الأسباب.

فقال الملك اخرجي يا دهنشة واطلي مهرك واجهري به ولا تجعليه في شرك

فقالت: مهري

فقال القوم: آه آه!!

-مهري..!

فقال القوم: آه آه!

وأنصت الوجوه والعقول في مضافة أهل القرية، وظهر الترقب على وجوه القوم وعلى ألسنتهم صراخا وصياحا ورجاء ولكن الراوي أبا إسماعيل قال لهم انتظروا الخبر في الغد فإنه قريب...

فيما بعد

سعد السعود

كان صيف عام ٢٠٠٣ حاراً متعباً ممزوجاً برطوبة لزجة، وأنفاس من دم ونار وانفجارات أصابت أفكار أبناء قريتي في الخليج العربي بالذهول فانسحبوا من المعامل والمدارس والمزارع إلى قريتهم العالية في جبال نابلس، وكانت ساعات جميلة تلك التي قضاها سعد في مطار عمان مع والديه وأخته سلمى فقد جمعته بكثير من أصدقائه الذين حملوا الذكريات يانعة معهم، وسقوها بالحب والحنين. فهم في المطار أرخوا عضلاتهم التي تشبثت بالحياة في الصراع مع لقمة الخبز وأطلقوا لألسنتهم العنان، وتبادلوا أطراف الذكريات بعد أن زينوها بكثير مما يحملون من ذلك الحب المعتق والشوق المعطر...

كان والداه ومن تصادف وجودهم في المطار من أبناء القرية، قد دخلوا في حديث جميل لا ينتهي عن البلاد والعباد، قال أبو سعد وعيناه مغرورقتان بالحب والحنين: اشتقت لكل شيء في بلادي، للطير والحجر والشجر والبشر! اشتقت لأحاديث الناس، وزقزقات العصافير، يا جماعة! والله نفسي أحضن كل شبر فيها. صحيح المختار مات؟!!

- أي والله، ربي يرحمه، وقع عن الفرس ودقت عنقه فمات؟

- الله يرحمك يا المختار!

- ما قلت لي، ألم يتزوج وضحة؟

- يا أبا سعد، قبل سنتين في صباح لا ينسى ضجت القرية فرعة، وانتفضت وارتبكت من أصوات عويل وصراخ ملاً أحواش القرية وكان الصوت هو صوت أم علي وصراخها وعويلها ونحيبها وهي تبكي زوجها الذي وقع من عل ودق عنقه فمات تاركاً خلفه سبعة أطفال وبقرتين وعشر دجاجات وأرضاً محروثة وثمرًا لما ينضج..

سمع المختار النبأ فتذكر كيف سبقه عريفج إلى خطبة وضحة أم علي وأنها فضلته عليه، مع أنها تعرف أنه يحبها، وكم سعى جاهداً للزواج منها! لكنها قالت لأبيها علي مسمع من الطالبين أنا مثل الفريك لا أحب الشريك، فقال المختار: شو بدها وضحة، شو بدها، زوجاتي الثلاث لكل واحدة منهن بيتها الخاص، وهي ستعيش في دار العز والجاه والحسب والوجاهة؟

قالت وضحة: يا بوي، قل لصاحب هذا الصوت إن وضحة ترفض أن تدخل على ضرة وإنها مخطوبة لعريفج بن سالم الحمود

قال المختار والغضب يركب عينيه ويحرك شفثيه ويشغل يديه: طيب يا وضحة طيب يا وضحة!

مضت السنون ونسي المختار وضحة وأهل وضحة

وجاء صوتها من بعيد باكياً ليوقظ في فؤاده حبه القديم، فحمل عكازه وسار بخطى ثابتة إلى مضافة آل الحمود، فسلم عليهم وقدم واجب العزاء واستعداده لتقديم أي مساعدة، وهو يبحث

بينهم عن عيني وضحة

قال لهم: يا جماعة الخير ترى غداكم عندي

قال وجه آل محمود: مكثور الخير يا مختار والله لا نريد أن نغلبك!

قال المختار: يا جماعة الخير، مصابكم مصابي وألمكم ألمي وهذا أقل شيء أستطيع تقديمه لكم،

أحسن الله عزاءكم وغفر لميتكم

خرج المختار من مضافة آل محمود ترافقه التحيات الحارة

لم تكمل وضحة العدة حتى طلب يدها من أبيها فقال له أبوها: وأين تذهب بأولادها؟

فطنَّ المختار بفيه وصمت وانسحب وهو يضرب أخماسا بأسداس

فنادته وضحة من خلف الباب: يا مختار!

فقال المختار: نعم يا وضحة!

-: أنا مثل الفريك لا أحب الشريك يا مختار

فقال لها المختار: وأنا نسيت أمر أولادك وبناتك يا وضحة، ما لي نصيب عندك!..!

قال أبو سعد: ربي يرحمك يا المختار، وقف الأولاد أمام حبه.

قال أحدهم: من يستطيع أن يطعم أولادها السبعة

نادى المذيع الداخلي للمطار الأسماء فانتفضت الأقدام في الممرات الرخامية اللامعة واشتد عودها

وهي تجر خلفها حقائب لها طعم لا يشبهه طعم في وداع أو لقاء

ناول الموظف سعدا جواز سفره بابتسامة عريضة وطلب منه بلطف أن يراجع الشباك ١٣، حمل

سعد حقييته المتخمة بالهدايا ومشى إلى الشباك ١٣.. فاستقبله موظف بابتسامة مفتعلة، وأعطاه

ورقة وقال له راجعنا في الدائرة، فقال له سعد: أي دائرة يا أخي أنا ما بعرف لا دائرة ولا مربع في

الأردن ممكن تعطيني العنوان؟ أصابت الموظف سكتة.. ثم ناوله ورقة وعليها العنوان

كان ذلك سبب تأخر سعد عن طابور الجسر الطويل ومعركة الصعود إلى الحافلات والمشاركة في

التدافعات التي تحاكي موج البحر

المحقق: اسمك؟

سعد: اسمي في البطاقة، أم اسمي بين أهل القرية؟

المحقق: اسمع ولا، أنا الذي يسأل، فاهم؟ اسمك؟

سعد: اسمي يا سيدي سعد السعود وأهل القرية يقولون سعد السعود المقرود

المحقق: شو عملك في السعودية؟

- أنا مندوب مبيعات لمطابع الألق يعني أنا أبيع كتب دار الألق للطباعة والنشر والنشر

- وشو نوع الكتب..؟

- طبيعي أكثرها كتب دينية ما بدها ذكاء، مش إحنا السعودية اللي فيها مكة والمدينة !

- المحقق: وأبوك شو بيشتغل؟

- أبوي معلم مدرسة قد الدنيا هناك!

- إلك علاقة مع فتح؟

- لا والله بس أمي الله يرحمها قالت لي إن شباب فتح زلام

- طيب إلك علاقة بحماس؟

- أنا من جديد صرت أصلي، وما بعرف ولا واحد بحماس؟!

دهش المحقق لهذه البراءة التي واجهه بها هذا السعود فقال له: مع السلامة

قال له سعد: يعني عشان تسألني هذين السؤالين أخرتني عن زحمة الجسر؟

ضحك المحقق في سره وقال لنفسه: هذا ولا حبة!

خرج سعد من الدائرة وهو غضبان أسفا على السيارة التي فوتها والتأخر الذي تأخره، ولما وصل الجسر كان كثير من المسافرين قد التحفوا الأرض الملتهبة وغطوا رؤوسهم بقطع من الكرتون وأبصارهم شاخصة إلى الطواير الممتدة من الرجال والنساء الذين يجرفهم سيل من الصراخ والتدافع...

نام سعد ليلته تلك على أرض الغور التي تنبع منها العقارب والحشرات واستباح دمهم فيها البعوض وكل أنواع القارصات وماصات الدم

كانت الطريق من عمان إلى جسر دامية ناعمة الملمس طيبة الهواء رقيقة اللحظات، سهلة كالنسيم، لم يشعر بها أحد ولم تتعب أحدا، وما كادت شمس ظهيرة ذلك اليوم التموزي تعامد الأرض حتى كان أبو مسعود ومسعود وأم مسعود وسلمى على أرض قريتهم يتعاطون كؤوس الراحة والهناء...

وبدأت التجهيزات والإعدادات لاستقبال المرحبين من أهل القرية...

كان أبو سعد يعرف أن الهدايا المطلوبة والعطايا مرغوبة فأحضر منها الكثير وجهاز لأصحابها ما يعرف أنهم يحبونه، وما إن غابت شمس النهار حتى عجت ساحة دار أبي سعد بالضيوف وبضحكاتهم وأصواتهم

في حديث الغربة

رفع أبو علي فنجان القهوة بيده عاليا وقال وحياء من خلق هذه النعمة يا جماعة الخير إن الحياة في هذه البلاد ليست حياة، ولكم الناس في إيطاليا غير والنسوان هناك غير، حتى الأكل غير، يعني هناك الحياة إلها طعم غير...

أبو علي الذي يحرص دائما على أن يرتدي الجاكيت والبنطال وتدخين الغليون زار إيطاليا للعلاج، أرسلته بعثة تبشيرية للعلاج من مرض في عينيه وبقي هناك لأكثر من سنة وعاد وهو معافى، ولكنه عاد مصابا بمرض آخر هو مرض ايطاليا، فقد صار حديثه يبدأ باطاليا وينتهي باطاليا

قال: يا ناس هناك في إيطاليا النسوان بيض.. كلهن بيض مثل الجبنة، وابتسامتهن لا تفارق شفاههن فهن دائما في انبساط، ويلبسن لباس الرجال ويقعدن أمام الرجال، لقد عشت مع صبية في عمارة واحدة، كانت تنام في غرفتها وحدها لا أم ولا أب ولا أخ ولا عم وكانت تظل تقول لي كراتسي كراتسي.. وتبتسم لي كلما رأني بساقيها الطويلتين وعينيها الفوارتين الصافيتين، والصراحة إنهم أنظف منا بكثير يعني إذا لفتتم الشوارع كلها لا تجدوا ورقة على الأرض ولا كيس زباله طائر أو ساقط أو متدافع، ولا يمكن أن تشاهدوا عيدان الملوخية مرمية على الرصيف، أو قصب المكانس في ممرات ترايبة بين البيوت كما ترونه في قريتنا، أقول لكم وأنتم أحرار تصدقون أو لا تصدقون البقر في إيطاليا حتى البقر يختلف، يا جماعة الخير البقرة بتفهم موسيقى وحبها قد ثلاث بقرات عنا...

وأقول لكم: ويا ويلك إذ ضربت كلبا في الطريق، فهي في الشوارع تسير مع أصحابها بأدب ولطف يعني ما في مجال للمقارنة بين أاطاليا وهذه القرية....

نظر الرجال إلى أبي علي وقالوا له: يا أبا علي، لم لم تتزوج أطلالية؟

قال أبو علي: يا ريت يا ريت! لكن أختكم أم علي ما وافقت!

فانفجر القوم بالضحك

سعد من قبل

في عرس طحيمر

نزال الحروف

في الطريق إلى البيت كانت عيون القوم تنظر إلى سعد نظرات شزرا، ولكن عينين من بين تلك العيون كانتا تنظران بحقد وغضب؛ إنهما عينا طحيمر الشاب الذي يجلس على عتبة باب بيته مع مجموعة من شباب الحي.. أما سبب هذا الغضب وهذا الحقد فهو ما فعله سعد ليلة عرس طحيمر؛ فبعد ليلة كان فيها السجال من أجمل ما شهدته القرية منذ عقود طويلة حتى قال أحدهم:

علي الطلاق لأتزوج الثانية وأجيبهم على عرسي، يا هيك الأعراس يا بلا

وقال آخر: أنا حفظت المساجلة عن ظهر قلب

الجمع: عنجد غني لنا منها!

الشاب بحماس وزهو:

السمرا يا محلاها ربي الحلا أعطها

سبحان اللي سواها قمر من أحلى النسوان

في ذلك المساء الصيفي في البيدر في ساحة الغناء التي تعانق السماء حيث كان أهل قريتي يغرسون
أغنياهم ويتقبلون بذار القمح بصدور مليئة بالحب والشوق تقابل العراقي واليافي، وبدأ بنسج عباءة
من الشعر الشعبي الجميل الراقص ذاك يهاجم وهذا يدافع ويرد الهجوم فبين السمرء والشقراء
والحماة وكنتها، والطويلة والقصيرة عاش الشعراء الشعبيين وأخذانا معهما إلى ساحة السجال
والجدال والهجاء

قال العراقي:

السمرء يا محلاها ربي والله أعطاها

سبحان اللي سواها قمر يا محلى النسوان

رد اليافي:

السمرء هل المحروقة القهوة مرة ما بذوقه

لو يوم تشوف عروقه بتهرب من أرض الجنان

فيرد العراقي:

ليش تقوللي الشقراء وهي مش مثل السمرء

خذاها مني بالعشره السمرء يا أحلا النسوان

فيرد عليه:

الشقراء سرقت لي قلبي وحبها ما بقدر خبي

ربي يحميها ربي اسكت يا مقصوص لسان

ويردد الجمع بعد كل وصلة يا حلالي يا مالي... حتى يكل الليل من حمل أصواتهم...

وعلى أطراف الزغاريد كان صوت نسائي يغازل البهاء الذكوري وينسج ألحانا لا مقدمات لها إلا

ما يبوح به القلب من حب دفين وشوق وحنين:

"سلم عليهم يا رايح شرقا سلم عليهم

بوس ايديهم طالت الغربية بوس اديهم

للأسمراني حامل رشاشو للأسمراني

لما حاكني الساعة ستة لما حكايني

مر وحياني بايدو رشاشو مر وحياني

على الجسرين ناصب رشاشو على الجسرين

هلفلسطيني فديو لو روحي هل الفلسطيني "

وقف سعد في طرف الجبل المودع وأناخ صوته مع المردين يقول ما يقولون ويحاول أن يجد أباه

الذي كان سيد الدبكة في القرية

كانت بطولات الحداء اللسانية تثير الجمع المحتفل فينقسم المحتفلون إلى مجموعتين كل واحدة تدعم

واحدا من المطربين

وبحماس شديد تشتعل المساجلات الشعرية حتى تصل إلى مرحلة القتال بالحروف

بدك تحكي إحكي برقه خايف لا تصيبك مشقه

أنا لقدامك الكركه اللي بتوكل كل الصيصان

يضحك الجمع ويزيد حماسهم

فبرد الآخر

شوفوا مين تحدايني اهبل ما قدّر شاني

ويله شو راح يعاني لما يسمع هل الفرمان

فرد عليه:

احكي يا مسخوط احكي من عمرك مني تشكي

رح أعمل منك علكة أوزعها عالنسوان

فبرد عليه:

دخيلك لا ترحمني وأوعك أوعك تفهمني

مغرور وما بتلخمني وانت ازعر بين الزعران

فبرد عليه:

شوفوا كيف اتحدايني وما قدّر لهبل شاني

بشعري مش بشي ثاني رح اقطعلو هللسان

فبرد عليه

عمهلك يا حبيبي من هسع ع الطبيب

غبيبي يا رحمة غبيبي بدي اسخط هذا الحيوان

فرد عليه

كاكي يا بيبي كاكي الغدر مش من أخلاقي

اكتب نعيك بورك موتك ع ايدي قد حان

وتشتعل الساحة بالحماس والفرح والبهجة، وتهتز لهذا التحدي، فيضربون الأكف بقوة وهم في صفيهم المتراصين المتقابلين، يقابلون كلمات المطربين بوجوه مضيئة مليئة بالبهجة، ويقودهم الحماس فلا يلتفتون إلى صاحب العرس ولا إلى العروس الذي قام ليشاركهم هذا السيل من الحب والفرح والحماس

وتقابل الوجوه التحدي بالتحدي مزيدا من ضرب الأكف ومزيدا من التراص والتمايل ورفع الصوت..

اشهدوا يا جماعة وانشروا ع الإذاعة

واحكوها ع السماعه اليافي نصو من جان

وينتشر التحدي أكثر على وجوه المبتهجين المردين لازمة الفرع " يا حلالي يا مالي يا ربي ردوا عليا "

كانت الفاردة تغني بأغنيات الأعراس وتسير بخطى هادئة إلى بيت العروس والفرس المزينة تتباهى بالزينة التي تحملها وتزين بها فتسير سيرا استعراضيا لفت أنظار الأهل القرية وأمتعهم، وحين مرت الفاردة من أمام بيت سعد أعجبت زينة الفرس وأبهرته حركتها، وأدهشه ما رأى من براعتها في المشي، وطرب لأغنيات الرجال وأهازيجهم وانتظامهم ورقة حركاتهم حتى إنه حفظ ما يقولون وردده معهم بصوته الأجش الخشن

فكر سعد أن ذيل الفرس جزء من الزينة فقد بهرته نعومته وحركته وانسداله بين فخدي الفرس
بألوانه الباهرة فقرر أن يسحبه وقد لحظ العروس الراكب على ظهر الفرس حركة سعد المريبة وحاول
تحذير أهله وأصحابه:

تلوحي يا دالية

با ام غصون العالية

تلوحي عرضين وطول

تلوحي ما اقدر أطول

يا طحيمر يا بو حطة

من وين صايد هلبطة

يا طحيمر يا بو الغقال

من وين صايد هلغزال

...

أمسك سعد ذنب الفرس وشده بقوة حتى ارتفعت قوائم الفرس ووقع العروس عنها وداست في

هروبها مجموعة من المحتفلين

هرب سعد بسرعة وخفة إلى بيت العروس واختبأ تحت الطاولة فقد كان حجمه الضئيل خير معين

له في الاختباء وقد انسدلت إحدى دناديش العروس إلى تحت الطاولة التي صمدت عليها

العروس، وبهرت هذه المنسدلة سعدا بريقها فسحبها فظنت العروس أن فأرا تحتها فقفزت من على

الوج خائفة مرعوبة فوقعت على وجهها فتورم وغطاه الدم، ، فانسل سعد خارجا حتى لا يلحظه

أحد

طحيمر الذي كسرت يده في تلك الحادثة بقي يقول للقوم إن سعدا هو سبب نفور الفرس

وهيجانها وكان القوم يقولون له حرام عليك يا طحيمر، سعد ليس سبب كل مصيبة في القرية

والحمد لله إنك بخير، والكسر سوف يجبر

في المدرسة مع لعنة الأندلس

جلس المعلم بينطاله المقلم على المقعد الأول من مقاعد الطلاب، سأهلم: من يستطيع أن يصف

حبه لأي شيء؟

قال الطلاب باستغراب: أي شيء أي شيء؟

قال المعلم: نعم أي شيء أي شيء!

رفع سعد أصبعه.

- سعد، أخرج يا سعد، فأنت أول المتطوعين!

- أنا أحب التين، أنتظر موسم التين بشغف وحب، لا أتصور الدنيا من غير تين

- تشجع طالب آخر وقال: وأنا أحب العنب، لا أتخيل حياتي من غير عنب.

- قال آخر: أنا أحب الزيت والزيتون، يعني رغيف الزيت بالزعتز هو عندي كالدجاجة

المشوية فضحك الطلاب

- قال المعلم: قصرتم الحب على ما تأكلون؟ أريد حبا من نوع آخر حب الرجل للمرأة للأمم

للأب لله...

وجم الطلاب ولم يرفع واحد منهم يده، ولما طال منهم ذلك وكادت الحصاة أن تنتهي ولم يجرؤ

أحد على رفع يده قال المعلم: غدا لا يحضر أحدكم إلا ومعه موضوع عمن يحب وإلا...

وصار يحرك العصا حركات فيها كثير من التهديد والوعيد

فكر سعد بما سيكتب وعمن سيكتب، واصطفت الوجوه أمام عينيه تسلم عليه: وجه أمه
الباسم المليء بالدعاء والحب، عينا أبيه وهما تنظران إليه بفخر وحب يحاول أن يتوارى خلف
قسوة مزيفة، وجه صديقه الضئيل المنكمش على رغيف طابوني

...

قرّر سعد أنه لن يكتب شيئاً، لن يكتب عن أحد مهما كانت النتائج لأنه لا يستطيع أن
يختار واحداً ليعبر له عن حبه فكل حب في قلبه له طعم ولون وسمّة وبهجة تميزه عن غيره، وهو
حب غير قابل للوصف بالكلمات

حمل سعد كتبه ووضعها في كيس قماشى خاطته أمه له وزينته بتطريزة كتبت فيها " سر بحمى
الرحمن" وعبارة تقول " هذا من فضل ربي " و بتطريزة بالخيط الأسود كتبت: "سعد سعود سعد
محمد.

كانت الطريق إلى المدرسة تشعر سعداً بأنه يسير في درب من دروب الجنة التي كان يجب أن
يسمع أحاديث شيخ المسجد عنها؛ عن اللبن المصفى والماء العذب السلسبيل، وعن الحور
العين اللواتي كأنهن الياقوت والمرجان، عن كل شيء يمكن أن يصل إليه خياله:

- أستاذ؟

معلم الدين: ما بك يا سعد؟

- أستاذ يعني، كل ما نتخيله أو نطلبه يتحقق؟

- نعم يا سعد كل شيء، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر..

تذكر سعد الطريق إلى المدرسة وما فيها. فقال للمعلم: الطريق إلى دارنا فيها أشجار وأطيار وثمار ونهر يجري من وسطها وفيها هدوء وخضرة، هل يمكن أن تكون هي الجنة يا أستاذ؟

ضحك الأستاذ وقال: يا سعد لا تقارن جمال الدنيا بجمال الآخرة

- إن سألتني الأستاذ عما كتبت سأقول له: أنا أحب الجنة وهي لا تشبه أي شيء في الدنيا يعني هي ليست كالجماد ولا كالحيوان ولا كالنبات...

سار سعد إلى المدرسة يجره قلبه المليء بالخوف مما ينتظره عند المعلم، فهو لم يكتب شيئاً ليحمي نفسه من العصا، وكان فكره موزعاً في كل اتجاه لا يهدأ، وكان قلبه كقلب أرنب رعديد؛ فقد كان سعد يخاف العصا كثيراً، ومع أنها لا تؤثر فيه إلا أنه كان يخشاه، وحين يراها في يد المعلم ترتبط دقات قلبه مع أنفاسه وارتعاشات في جلده واهتزازت في عضلاته.

وبينما هو سارح شاردهم الدهن عثرت رجله بصندوق خشبي مدفون في التراب فظن أنه الصندوق الذي يحفظ اللوح الزمرد؛ فقد كانت أطرافه لامعة، وألوانه مائعة، وتبعث منه رائحة القدم والبعد والزمن الغابر فاستخرجه وهو يقول: كر بر أنا مش هر وكررها ثلاثاً... ثم نفض عنه التراب وجهد كي يفتحه وظل يحاول ويحاول حتى استطاع كسر ما يربطه فانفتح فقال: شاش مات وعاش، وكررها ثلاثاً، ونظر فيه فوجد لفائف من ورق عتيق قديم ملفوفة بعناية ومربطة بخيط ذهبي، فقال اقرأ واحدة منها لأسحر أولاد صفي والمعلمين ففتح اللقافة بحذر شديد فقراً:

يا قارئ كتابي صل على الرسول الكريم، وابدأ قراءة كلامي من اللفافة التي عليها حرف الميم ثم اقرأ التي عليها حرف الحاء ثم اقرأ ما شئت ولكن احرص على أن تكون الورقة الصفراء هي آخر ما تقرأ، وأنصحك يا قارئ كتابي أن تتحل بالصبر ولا تلق بي إلى القبر، ولا تلق بروحك إلى العسر فليس بعد عسر اللعنة في هذا الصندوق يسر، فإن قرأت سطرا مما كتبت فلا تتركه حتى تنهيه، وإن فتحت لفاقة فاقرأها إلى نهايتها وإلا حلت عليك لعنة الأندلس وقرأت على روحك تعويذة اللعنة من الحرس وأصحاب الناقوس والجرس، واعلم أن كتابي في حب الديار وحديثي عن الرجال الأخيار، وهو آخر ما استطعت نقله من أرض قرطبة وآخر ما حملته بعد النكبة العظيمة، فأنا لم أحمل معي مالاً ولا فضة

فدخل قلب سعد مما كتبت في الصندوق خوفٌ عظيم، وتردد في إكمال ما بدأ فإن التحذير واضح الخبر، والشرط محدد البنود: إن قرأ سطرا وجبت عليه اللعنة إن لم يكمله، وإن فتح لفاقة أكمل قراءتها، ولكن "لعنة الأندلس" العنوان استهواه.

"لم لا أحمله إلى معلمي ونبدأ قراءته في الصف جميعا حتى تحل اللعنة على الطلاب والمعلم إن لم يقرأوه حتى نهايته، ثم لم لا نقرأه فهو عن الحب، وهو الموضوع الذي طلبه المعلم، وإن حلت اللعنة فلتحلل علينا كلنا، لا علي وحدي؟!"

دخل المعلم غرفة الصف وسأل عمن لم يحضر موضوعه، ومن لم يؤد واجبه؟

لم يرفع أحد إصبعه فقد كان الطلاب يؤدون واجباتهم خوفا من العصا

قال المعلم: إذن، وهو ينظر إلى سعد ويتمنى ألا يكون قد أدى الواجب، فليخرج سعد، فبدأتينا ستكون من عنده... هيا يا سعد اخرج واقرأ علينا ما كتبت وعرفنا بمن تحب... شَنَّف آذاننا بلغتك وجملك وصورك...

فتح سعد الدفتر وعلى وجهه ابتسامة المنتصر وبدأ يقرأ:

يا قارئ كتابي صل على الرسول الكريم، فردد المعلم والطلاب الصلاة على النبي، ثم تابع سعد القراءة.. وابدأ قراءة كلامي من اللقافة التي عليها حرف الميم ثم اقرأ التي عليها حرف الحاء ثم اقرأ ما شئت ولكن احرص على أن تكون الورقة الصفراء هي آخر ما تقرأ، وأنصحك يا قارئ كتابي أن تتحل بالصبر بلا تلق بي إلى القبر، وتلق بروحك إلى العسر فليس بعد عسر اللعنة في هذا الصندوق يسر، وإن قرأت سطرا مما كتبت فلا تتركه حتى تنهيه، وإن فتحت لقافة فاقراها إلى نهايتها؛ وإلا حلت عليك لعنة الأندلس، وقرأت على روحك تعويد اللعنة من الحرس وأهل الناقوس والجرس، واعلم أن كتابي في حب الديار وحديثي عن الرجال الأخيار وهو آخر ما استطعت نقله من أرض قرطبة وآخر ما حملته بعد النكبة العظيمة، فأنا لم أحمل معي مالا ولا فضة

لما سمع المعلم الكلام أسرع إلى حيث سعد وانتزع منه الدفتر، وقال له: ما هذا يا سعد؟! قال سعد: اقرأ يا معلمي!

قرأ المعلم فارتعد وصار ينظر إلى سعد الذي ورَّطه وورَّط الطلاب في قراءة طويلة لا يعرف ما فيها وكيف ينهيه، وعرف أن سعدا قد خطط لذلك في ليل..

فقال وهو يهز رأسه والخوف باد في عينيه وملتصق بحمرة وجنتيه: اقرأ اقرأ!

قرأ سعد:

وقرع الجرس قبل أن يتم سعد جملته

في تلك الليلة

كانت نظرات أبي الفوارس تبحث عن فرصة في جسد سعد للثأر والانتقام وكان أبو الفوارس الرجل الضخم صاحب العضلات المفتولة والشاربين الكثرين الغليظين والشعر الأجدد هو أول من تحدث في تلك الليلة فقد قدموه لحلاوة لسانه وكثرة مغامراته وما فيها من أخبار البطولة والقوة، لقد حدثهم بشغف وحماس كعادته عن معركته مع الذئب. كانت الليلة طويلة تبعث من أنحائها رائحة الموت ويجلس على أطرافها صوت الخوف، وقد هز أبو الفوارس الجلسة بصوته ونبه الجالسين المستمعين على قوته حين قال صلوا على النبي يا جماعة، وكرر الطلب..

- قبل أسبوعين تأخرت أنا وأختكم أم الفوارس في عراق الذهب، وليلت علينا، وما كان معي لوكس أو ضوء، والقمر غايب والدنيا كحلة، ودقات قلب أم الفوارس مثل طبل الجيش البريطاني في مرج بني عامر، ورگبتها على الحمارة ومشيت قدامها ولما وصلنا وادي السوس داست قدمي حية طويلة ولولا سرعتي لكانت نهشتني وعضتني؛ فقد انتبهت عليها وخمنت مكان ذيلها فأمسكته ونفضتها نفضة قوية أرختها وأسكنتها فلوحت بها في الفضاء ورميتها بعيدا، والنفث إلى أم الفوارس فإذا هي ترتعد ولا تستطيع الكلام من شدة الخوف، فسألتها ما بك يا امرأة؟! فأشارت إلى شرر يتطاير وانعكاس لامع لعينين فعرفت أنه الضبع بلحمه وشحمه، وأدركت أن المواجهة

لازمة، والقتال محتم، فقلت لأم الفوارس استعدي وكوني إلى جانبي ولا تتعدي، فبقيت ملتصقة بي وأنا أسمع طنين الخوف في صدرها، وأنا أسير بخطوات حذرة حتى وصلت كرم الحاج محمود، الله يرحمه، وكنت أعرف أن أولاده يخفون الطواري والكريكات والفقوس جانب السنسلة فالتقطت شاعوبا وأعطيته لأم الفوارس وأمسكت أنا الطورية وتسلمت بها، وظن الضبع أن فرصته قد أتت لافتراسنا فهجم بسرعة البرق على أم الفوارس التي وقعت عن الحمار فرميت بقوة بالطورية فأصبت عينه اليمنى فتطاير الشرر من عينه الثانية وبدأ يدور حولنا فضربته بالشاعوب فأصبت رقبته..

وتعلقت عيون الحاضرين بأبي الفوارس وحركة يديه وأصابعه وكلماته

ولما رأى ذلك منهم قال: ولكنه بقي يدور حولنا ويهز الأرض بصوته وعرفت أنه سيهجم علينا لا محالة وأن المعركة هذه المرة ستكون بالأيدي

قال القوم: يا الله! يا الله! الله ينصر دينك يا أبا الفوارس!

فقام أبو الفوارس وصار يمثل حركة الضبع وهو يهاجم فريسته، .. فركضت باتجاهه وعاجلته بلكمة على وجهه طيرت عينه الثانية فصار يدور حول نفسه ولا يعرف إلى أين المسير، فضحك القوم وانفرجت أساريرهم

فحملت صخرة وضربتها رأسه فمات ملطخا بدمه، فحملت جثته على الحمار وجئتكم به لتشهدوا على ما فعلت

قال سعد براءة: بس يا أبو الفوارس الجثة التي أحضرتها كانت بعينين؟

نظر أبو الفوارس إلى سعد، وقال في سره "عقبال ما أقلع عينيك": نعم نعم يا حبيبي يا سعد، فقد أعدت له عينيه بعد أن مات لترواكم كان متوحشا

في صباح ذلك اليوم

كانت دار أبي سعد هي الملعب في ذلك الصباح حيث تجمع أهل القرية ليشهدوا ظهور سعد الذي صار عمره إحدى عشرة سنة، وقد أحضر سعد إلى الحلاق جراً، يمسك يديه الضعيفتين شابان منحوتان من عضلات وصخر بعد أن ركضا وراءه في حقول القرية وبساتينها وبياراتها، وصعدا خلفه جبالا وهبطا وديانا ..

كان سعد قبل أن تقبض عليه هذه الأيدي الفولاذية يهرب من هذه اللحظة وهذا اليوم، ويتوارى عن الأنظار كلما رأى الحلاق قادماً من طرف الشارع، أو يهرع إلى الحقول ليختفي حتى يعسعس الليل هناك، وكم مرة عجز الشباب عن اصطیاده وإحضاره إلى صاحب المقص، الذي سبب لسعد كابوساً مرعباً لازمه ردحا طويلاً من العمر...

كان مقص الحلاق يظهر لسعد في الأشياء كلها في سطح القمر، وفي رغبة فنجان القهوة، وعلى الأشجار والأغصان والغيوم، وفي صحن الأرز وصحن الحمص، وبين ألسنة اللهب وفي جمرات الكانون..

انتشر الأطفال حول الدار، وتوزعت النسوة في غرف البيت، أما الرجال فكان أكثرهم يقف حول شبابيك العلية حيث احتجز سعد، يمدون رقابهم ليروا كيف تقص حمامته... لكنهم في تلك اللحظة أغمضوا أعينهم وتخلوا عن حب استطلاعهم وتشقيهم، ورضوا بالاستماع إلى أغنيات النساء وهن يرددن بجمال ورقة:

طهرو يا مطهر وناولوه لأبوه . . يا صلاة محمد يوم طهروه

طهره يا مطهر وناولوه لمو . . يا دمة سعید بللت كمو

طهره يا مطهر وناوله لعمو ٠٠ سعید والله غالي يخليه لأمو

طهره يا مطهر تحت ظل التين ٠٠ يا دمعة سعید بلت العينين

طهرو يا مطهر ولا تسأل من وين سعيد والله منا منك فلسطين

يا مطهر الصبيان بالله عليك ٠٠ لا توجع سعید بزعل عليك

وحلفتك يا مطهر يرضى عليك تتحنن ع سعيد وتخفف ايديك

عرفت القرية كلها لحظة القص فقد انطلقت صرخة عميقة قوية فيها أكوام من الوجد والغضب
والرفض من فم سعد...

لبس سعد الدشداشة وأمسكها بيده من منطقة القص، وذهب باكيا ليقبل يد أمه، ويمتص من
عينها الأمان بعد أن سكب صاحب المقص فيه من الألم ما حاول تجنبه منذ زمن طويل...

ارتفعت الأصوات في دار أبي سعد بأغنيات مليئة بالدفع:

طهره يا مطهر وناوله لخيوه ٠٠ يا صلاة محمد يخليلو بيوه

طهره يا مطهر وناوله الدشداش ٠٠ يا دمعة سعید بللت القماش

طهره يا مطهر وناوله للناس ٠٠ سعید والله غالي ويرفع الراس

طهره يا مطهر تحت فيّ الزيتون ٠٠ يا دمعة سعید نزلت من العيون

يا مطهر الصبيان بالله عليك ٠٠ لا توجع سعید بزعل عليك

حلفتك بالله وبالغالي عليك عسعید تتحنن وتخفف ايديك

بقيت صرخة سعد العالية في خياله. وظل وجعه من تلك اللحظة ينتشر في جسده، يقلب تلك اللحظة ذات اليمين وذات الشمال وهي تزداد همسا ووشوشة وهو يقول لنفسه: لم لم تغلق عينيك يا سعد؟!

وجاء المساء

جاء المساء سريعا فلجأنا إلى عيني أمي فقد كانت المساءات يابسة بعد الاحتلال؛ التزمنا فيها بيوتنا وألصقتنا عصا الاحتلال بالجدران والحيطان والممرات الترابية وصمدتنا على الحواجز والأسيرة والفرش وسمرتنا عليها، فكثرت حكاياتنا وحكايات أمي...

... كان سعد مبطوحا على ظهره وعلامات الوجع والألم بادية في عينيه وعلى وجهه، يمسك بيده طرف ثوبه ليبعده عن منطقة القص، ويجاوب جاهداً أن يبقى عينيه مفتوحتين، وجسده صامدا أمام إغراء النوم، فقد تعلق روحه بحكايات أمه ...

قالت أمي وهي ترى الشغف في عيون الأطفال لسماع حكاياتها: هل حكيت لكم قصة ملكة النحل والدب قرقوش؟

قلنا بصوت واحد: لا لا

قالت أمي:

إنه صباح آخر يطل بوجهه على مملكة النحل، وهو صباح جديد مليء بالعمل والجهد للعاملات، اللواتي انتشرن في ممرات المملكة بنظام وهدوء وتفان في العمل، وكانت ملكة النحل تجلس على كرسيها الذهبي تنظر إلى مملكتها بفخر وزهو فقد استطاعت العاملات أن يجمعن كل ما تحتاجه

المملكة لفصل الشتاء من غذاء في وقت قصير. كانت العاملات ينظرن بإكبار وإجلال إلى

ملكتهن صاحبة الفكر السديد والنظر البعيد وبراعة التخطيط والتوجيه

عاد نحال إلى المملكة بعد رحلة صيد طويلة طرق الباب ففتحت أمه ملكة النحل الباب وهي

تبكي

احتضن نحال أمه وقال: ما الذي يبكيك يا أمي، لم تبكين يا أمي؟

قالت ملكة النحل: الدب قرقوش هجم على خليتنا وأكل كل ما جمعناه من عسل وغذاء، وقتل

مجموعة من أخواتك العاملات نحلة، ونحولة، ونحالة، ونحائل، والقارصة... قتلهن كلهن يا نحال

قتلهن قرقوش.

غضب نحال غضبا شديدا وأسرع إلى عصا طويلة فحملها وهمَّ بالخروج من البيت لمقاتلة الدب

الشرير ومواجهته، لكن أمه منعتة، وقالت له:

يا بني، لن تستطيع وحدك التغلب على الدب قرقوش إنه ضخم وقوي وشرس، إنه أقوى منك

وأضخم منك فلا تضيف إلى حزني حزنا، وفكّر معي في خطة نحمي بها مملكتنا من هذا الوحش.

نظرت الملكة إلى ابنها قرقوش وقالت: علينا أن نجتمع بحيوانات الغابة لنسمع رأيها في أمر الدب

أرسلت ملكة النحل في طلب حيوانات الغابة، ودعتهن إلى اجتماع عاجل للبحث في اعتداءات

الدب قرقوش

عندما قرأت الحيوانات الدعوة فرحت كثيرا وسرها أن تجتمع لدرء خطر الدب

قالت الأرانب: هذا الدب تمادى كثيرا في ظلمه وضلاله وبطشه، وقد قتل كثيرا من أولاد الأرانب

قالت النمل: هذا الدب دمر بيوتنا وأكل أطفالنا ويتم نساءنا

اجتمعت الحيوانات تحت شجرة كبيرة، وأحاطت القطط والأرانب والسناجب والثعالب والماعز والغزلان بالشجرة، واعتلت العصافير والقردة وكثير من الطيور أغصان الأشجار العالية تجمعت الحيوانات في المكان المحدد، ولم يتخلف عن الاجتماع إلا السباع والضباع، وانتشرت عاملات النحل يقدمن العسل والطعام والشراب للضيوف بهمة ونشاط، وقفت الملكة وحيّت الحضور، ثم قالت:

يا أبناء الغابة الكرام قد علمتم ما فعل الدب قرقوش، وقد ذاق كثير منكم ألم فقد الأجزاء ومرارة الاستبداد، وذل عبودية القوي للضعيف وطعم الظلم، وها نحن قد اجتمعنا لكي نرى في أمرنا ماذا نفعل لنوقف هذا البطش وهذا الظلم..

قالت الحيوانات: فليمت الدب يموت الدب يموت الدب

قالت الملكة: لا يموت الدب بالصوت أو بالصراخ والصرائح يموت بالعمل والكفاح فهاتوا ما عندكم من أفكار، ثم نظرت إلى الثعلب وقالت: هيا يا أيها الثعلب المغوار هات ما عندك من أفكار

هز الثعلب رأسه وقال دعيني أفكر يا صاحبة الجلالة.

وصارت الحيوانات تطرح أفكارها وخططها للتخلص من الدب وأجمع الحاضرون على أن خطة الثعلب هي أجود الخطط، وأصلحها للتخلص من الدب.

حفرت الحيوانات حفرة عميقة وغطتها بالقش والأغصان الضعيفة، ثم وضعت في وسطها قرصا من العسل، وتعالى غناء مجموعة من العاملات وهن يدرن حوله ويدخلن ويخرجن منه، ووضع الدجاج بيضا على القش، ونسجت العصافير عشا لها على ذلك القش، وذهب كل حيوان إلى

مخبئه وبقيت الملكة إلى جانب العاملات ومعها نحّال ومجموعة من المحاربين، وطال انتظار الحيوانات للدب فقد مر النهار طويلا مخيفا مرعباً ولم يأت الدب، وجاء صباح آخر على العاملات وهن فوق الحفرة المغطاة بالأعشاب يدرن حول قرص العسل لم يدخل الكسل إلى أجسادهن، ولم يهمس اليأس في آذانهن، ومضت الساعات طويلة على نحال وأمه وهما يجلسان على العشب بانتظار الدب الشرير، وفجأة بدأت الأرض تهتز، وسمعت الحيوانات صوتاً مرعباً اهتزت له الأغصان التي تغطي الحفرة، قالت الملكة بصوت عال إنه الدب قرقوش فليستعد الجميع...

صاح نحال: قرقوش يا قرقوش يا وحش منفوش، تعال تعال وخذ نصيبك من العسل فأنا أتحداك أن تهزمني في مسابقة أكل العسل

سمع الدب كلمة عسل فسال لعابه، ونظر إلى حيث مصدر الصوت فرأى قرص العسل يتراقص أمام عينيه فزجر وزجر فاهتز لصوته المرعب المكان، وأسرع الدب إلى حيث نحال وقرص العسل، وما إن خطا خطوتين حتى تكسرت الأغصان الضعيفة ووقع الدب في الحفرة العميقة، واستقر في قاع الحفرة محطماً مكسر الأضلاع والأطراف

تجمعت الحيوانات حول الحفرة فرحة بالنصر الذي حققته بوحدتها واجتماع كلمتها ...

سعد في الصف الأول

في حلقة الدرس لم يكن سعد السعود يجروء على الحراك، فقد اصطفت التحذيرات والتهديدات أمام عينيه:

إياك أن تغادر قبل قرع الجرس، وإياك أن تزعج المعلمة سمر فهي ابنة مختار القرية الذي بيده الحل والربط!

ولم تمر أيام على تسمّره في مقعده حتى دخل إلى نفسه الملل، وصارت المقاعد في عينيه كأنها أفاع تبتلع روحه فقرر الهروب من هذه الحال، قال لمروان ابن خاله: هل تعرف أن بقرة أم العبد قد ولدت وأن عجلها بدأ بتعلم القراءة والكتابة منذ اليوم الأول من غير أن يذهب إلى المدرسة؟

قال مروان والدهشة تملأ روحه: العجل يقرأ ويكتب؟!

- نعم، سمعت أبا العبد يقول لأم العبد: العجل يتعلم في الدار أحسن له، وقد رأيته أمس وهو يكتب على جدار الزريبة أحبك يا "ثقيلة"!

- ولكن البقر يا سعد لا يقرأ ولا يكتب ولا يتكلم؟!

- مسكين.. وهز رأسه وصم شفثيه وهمّ بالمغادرة، أنا ذاهب وحدي فابق أنت هنا مع هؤلاء الأوادم.

فسارع مروان إليه وقال، خذني معك لأراه

كان الهروب الأول من المدرسة له بهجته وطعمه الخاص، فقد انطلق الاثنان كسهمين يقطعان الحقول ويطويان المسافات المبتلة بعطر الطبيعة المتشحة بخضرة عطرة ساحرة حتى وصلا دار أم العبد وبدأ رحلة الاستطلاع والبحث عن العجل الجديد القارئ الكاتب ..

- إنه هناك، عند الزير يقرأ ما كتب عليه قال سعد

- نظر مروان إلى حيث العجل وتابع بشغف حركته وحركة مشفره ولكنه لم يسمعه يقرأ ولم يجده

يهجئ، فقرر أن يقترب أكثر فاقتربا حتى وصلا إلى العجل خلصة من أمه وجراه إلى خارج الزريبة

وبدأ باستنطاقه والعجل لا يتكلم، أو لا يريد التكلم كما كان يقول سعد فقرر أن يستخدم معه

العنف فالعصا التي تحملها المعلمة كانت كافية لترعب الطلاب وتدفعهم للصمت وأداء الواجبات،

قال مروان نربطه إلى تلك الشجرة ونجلده كما يجلدنا المدير والمعلمة وسنجعله ينطق ويعترف؟

سعد: نعم سنجعله يعترف

لم يصمد العجل طويلا فقد كتمت ضربات العصا أنفاسه، وفر القاتلان من غير أن يشعر بهما

أحد

وظلا يراقبان الزريبة وأم العبد وهي تشتم وتدعو وتلعن

في تلك الليلة

جاء الغد على المضافة، واحتل الرجال مقاعدهم فيها منذ بعد العصر، وصار الجمع يستعجل وصول الراوي أبي إسماعيل ولكنه وصل في موعده قبل الغروب.. وجلس في مقعده الذي إليه العيون شاخصة والقلوب نابضة والألسن منعقدة، ثم سلم وسلموا وتكلم وصمتوا: وصلنا إلى مطلب العروس، وتبين أنها لا تريد الفلوس وأن مطلبها كان اللوح الزمرد فلما سمع عفاشة هذا الكلام بهت وصمت فقالت له دهنشة: وها أنا أعلمتك بمهري ياملك الملوك وزين الملاح ونور الصباح فقال لها عفاشة: سمعا وطاعة وسوف آتيك به في الساعة.

وتركها وراح وهو عارف بالمقصود ومدرك للملعب، وسار إلى أن وصل إلى الديوان وجلس بين ملوك الإنس والجان، وجمع بين يديه العلماء والأعوان، وأبلغهم بمطلب العروس، ومهرها المحسوس، فدخل الخبر آذانهم كالصاعقة، فصرخوا كلهم صرخة واحدة كأنها الرعدة في الغمام وهموا بالقيام، وكاد المجلس أن يؤول إلى الانهدام وهم يقولون: يا عفاشة لا تتكلم بهذا الكلام فلا عاشت دهنشة ولا أبوها ولا من يحموها في الأنام، ولا كانت أيام تجلب لنا المخدور إلى المقام لتخلي ديارنا، واشتد الخلف والخصام لولا الحكيم دحام الذي يقال له دهقان الذي ردهم، وأسكن روعهم وقال لهم: يا ملوك الجان ما بالكم أعظمتم هذا الشأن وجعلتم النهاية حقيقة لازمة والخراب مآل محقق اجلسوا ولنبحث في أمرنا بالعقل ونجد لهذا اللوح الحل، واعلموا أن الرزق مقسوم والأجل محتوم وأن الدنيا لا تدوم ولا يبقى إلا وجه الواحد القيوم وجلسوا في أماكنهم ولم يخرجوا عن طاعة ملكهم حتى انفض الديوان وقام الملك سيف بن ذي يزن يسأل إيش الخبر وما هو هذا المخدور والخطر يا

دهقان؟

فحكى الدهقان القصة للملك سيف بن ذي يزن من أولها حتى مهر دهنشة فقال له سيف: وما هذا اللوح يا حكيم الزمان؟ فقال له الدهقان حكيم الزمان: هو فتنة ألقاها واحد من الجان على دهنشة، لما طلب منها أن تطلب مهرها اللوح المنكود وهو لوح عجيب، وقد اصطنعه ملك من ملوك الجان رهيب، بمعرفة كهين، وسبب اصطناعه أن الجان كانت تؤذي الإنسان حين تمر به وتسلبه عقله وفؤاده وفي أي مكان التقته آذته فاصطنع الملك هذا اللوح وصار يمر به على الجان وعلى أعوان الجان في كل مكان، وما مر به على واحد منهم إلا وأبطل حركته فلا يقدر أن يقوم ولا يستطيع أن يحوم، ثم إن ملوك الجان وأعوانهم رجوه وترجوه واستعطفوه بالله واستحلفوه أن يبطل عنهم سحره وأن يكفيهم شره فقال لهم أنا أكفيكم شره ولكن لي شرط يجب أن يتحقق وأن يلتزموا به وأنا لا أتصدق، فقالوا وما هو شرطك يا عظيم، هاته من الألف إلى الميم؟ فقال لهم: أبطلوا أذيتكم عن الإنسان ولا تمسوه في أي مكان. فقالوا: رضينا وعن أذاه انتهينا.

وأخذ عليهم المواثيق على أنهم لن يؤذوا الإنسان، وأن يتركوه وألا يمسوه في أي طريق، ثم إنه جعل اللوح هذا في كنز له اصطنعه لنفسه ودفن فيه، وكنزه عظيم عظيم فيه ذهب ما أكثره، وجواهر من فضة وماس، وكؤوس من ذهب ونحاس وفيه أشياء لا توصف ولا تقاس .. ثم أكمل الراوي وهو ينظر إلى عيون أهل القرية الشاخصة... وقال الحكيم للملك سيف: والجان من هذا اللوح يخافون لأنهم إذا ظهر إلى حال الضعف يرجعون.. وتبطل حركاتهم وتنتهي صولاتهم وجولاتهم.. ثم أكمل الحكيم دهقان حكيم الزمان في الأمر والشان، واعلم أيها الملك أنه متى خرج هذا اللوح من الكنز دنت وفاتي، وحان وقت مماتي فقد انتهت مدتي واحترقت صورتي، ولكنني علمت أيها الملك أن كل شيء بإرادة الله معقود ومربوط. وأنا تبعت الحق واستنرت بنوره وأيقنت به، وابتعدت عن

الباطل واجتنبته ففضاء الله ليس له دافع، وما أرادته ليس له مانع، وإني معك حتى النهاية، وروحي
دونك الفداء، ولا أقبل أن تشمت بك الأعداء فشكره عفاشة والملك سيف، وكان أن جاء الليل
واسودَّ وأحلك كل شيء وانسد، وأخذ الحكيم دهقان الملك سيفاً وعفاشة وسار بهما إلى أن
وصلوا واديا متسعا عظيما كله شر وفيه كر وفر ودماء متناثرة ووحوش متكاسرة والطعان فيه دائم،
والموت على من فيه قائم.

وسكت الراوي أبو إسماعيل دون تمهيد ومن غير أن يزيد ويعيد ولم يقل له رجال القرية أكمل فقد
عرفوا طبعه وتذوقوا نبعه

في تلك الليلة..حكاية أمي

قالت أمي: في يوم من الأيام والمطر ينهمر، والريح تصيح وتملأ الآفاق، وتضرب النوافذ بأوراق الأشجار، وتلطم أغصانها خرج عندوش من عند أمه حاملا الفول الساخن والملح والليمون ليجلس أمام المسجد لبيعه ويشترى للبيت خبزا وزيتا، وظلت أمه تراقبه من النافذة مشفقة عليه من هذا المطر وهذا البرد وهذه الريح، ولكن ليس بيدها حيلة فإن لم يبع ابنها الفول مات إخوته من الجوع..

ومشى عندوش في الشوارع الترابية وفي الحارات المنسية، ونادى بأعلى الأصوات وكرر النداء مرات ومرات: يا فول يا فول، ساخن وطيب يا فول، لذيد وزاكي يا فول، يا فول يا فول "

ولكن وبسبب شدة البرد وغزارة المطر لم يشتر منه أحد، ولم يسأله عنه أحد؛ إذ لم يخرج أحد من بيته، فحزن واغتم، ونزلت دموعه على خديه، وهو يرى الفول في السطل كما كان منذ الصباح، لم يبع منه حبة، ثم لما أيس من بيعه ومن دموعه رجع إلى البيت حزينا مغتما ودموعه منهمة كأنها هاربة من قسورة وما إن دخل الدرب إلى داره حتى ثارت الأرض وسالت مياه الأمطار بقوة كبيرة وسدت الطريق وجرفت كل ما عليها من علامات فزاد حزنه وبدأت ريح قوية تضرب وجهه، فزاد حزنه وغضبه فقد صارت طريقه إلى البيت نhra جارفا فحاول العودة لكن رجله كانت بالماء مربوطة وبالأرض مضغوطة، وكان غصن طويل من الشجر يسير إليه فوق عليه وأوقع ما معه من الفول ثم جرفه إلى واد سحيق ألقاه في بئر عميق يسكنه المجهول فصار يبكي ويصيح ويقول:

ويلي ويلاه، آه آه

يا حبة الفول يا حبة الفول

آه آه ثم آه آه

يا حبة الفول يا حبة الفول!

وصار ينادي ويكرر ويعيد النداء ولكن لا يجيب، ويتأوه ولكن لا طيب، وظل على تلك الحال ساعة أو أكثر حتى بلّت دموعه الماء، وفجأة ومن غير إحم ولا دستور اهتزت البئر وأضاءت نواحيها، وخرج من جدرانها خيطٌ كثيف من دخان أزرق وأحمر ارتفع في فضاء البئر، وظل يتجمع ويتجمع حتى صار على صورة رجل كبير ضخم فاتح يديه يضحك بصوت عالٍ عميق فقال:

المارد: من نادى مارد الفول، من نادى بطل الحقول، من نادني ومن قلبه حيائي فليقف ويعرف بنفسه؟ ثم ضحك ضحكة حادة كالسيف.

قال عندوش وعيناه من خوف وقلق وحزن: أنا عندوش بائع الفول يا سيدي، وسيدي وسيدي وصار يبكي!

المارد: شببك لبيك عبدك بين ايديك، اطلب تطع! طلباتك يا معتك الرقاب، يا صاحبي يا متفضلا علي.....!

- اسمع قصتي واسمع مصيبي، فإن لي أخوة جوعى تركتهم في البيت ينتظرون عودتي ومعني الخبز والزيت، وقد وقع مني صحن الفول وما فيه، وأنا أبكيه واتحسر عليه...

ضحك المارد بصوته الزلزالي وقال: ذاك أمر بسيط فاطلب ما تريد أحققه لك في الحال؟

عندوش متسائلا متعجبا مبهورا: ما أريد، ما أريد!؟

ضحك المارد ضحكة جارفة مزلزلة: طلباتك أوامر يا عندوش؟

ففكر عندوش وقال بعد عميق تفكير: أريد قصرا كبيرا لي ولأمي ولإخوتي؟

المارد: طلبك مجاب ورغباتك مجابة

- وأريد مالا كثيرا أعيش به وأحيا هانئا مع أمي وإخوتي

المارد: طلبك مجاب ورغباتك أوامر، هل تريد شيئا آخر؟

- لا لا هذا يكفي.

المارد: أغمض عينيك، وسد أذنيك، ولا تفتحهما إلا حين أمسك يديك، ولا تلتفت إلا حين

أطلب منك وأمسك رأسك بيدك.

أغمض عندوش عينيه وسد أذنيه وتسمّر في مكانه لا يحرك عضوا من أعضائه، ويحاول أن يوقف

صوت أنفاسه وقرعات قلبه التي بدأ صوتها يملأ روحه والبئر.

ولما أمسكه المارد من يديه فتح عندوش عينيه فوجد أنه في قصر كبير ضخم فوق جبل عالٍ،

وحوله بساتين وأشجار وأنهار ففرح كثيرا وركض إلى أمه فرحا مسرورا غير مصدق ما حدث له.

عندوش: هيا يا أمي هيا!

- إلى أين يا حبيبي؟

- هيا، وسترين.

وتركوا الكوخ، ومشوا باتجاه القصر، ودخلوه وهم مبهورون من جماله واتساعه وارتفاعه، فقالت له

أمه: لمن هذا القصر العظيم يا عندوش، وكيف تدخل بيوت الناس من غير استئذان؟

عندوش: هو لي يا أمي هو لي!

وبعد جدال وتعجب وسؤال وتساؤل أقامت أم عندوش معه في القصر، وعاشا عيشة هنية يأكلون

أطيب الطعام ويلبسون أجمل الثياب، بساتينهم غناء خضراء جناها دان وثمارها وافرة طيبة، حتى

سمع بهم مارد المال فسأل عنهم وأطال السؤال، فدخل قلبه الحسد والغضب، وطمع بما عند
عندوش من ذهب وقروش، وقرر أن يسلبه كل ما يملك، فأرسل إلى قصر عندوش من يستطلع
الأخبار ويعرف قوة عندوش وقدرته فاستطلعت العيون أخبار عندوش، وحددت قدراته ومن معه
في القصر، ورجعت إلى مارد المال بالجواب عن كل سؤال، فقال: غداً ينتهي أمرك يا عندوش غداً
أخذ ما جمعت من ذهب وقروش...

ولم ينتظر مارد المال الصباح ولا الغد فقد ركب رؤوس الشياطين وطار إلى قصر عندوش فدخله من
غير استئذان ولا سلام وقال لعندوش:

أيها الملطوش المسمى عندوش، هات ما معك من مال وذهب وقروش! فقال له عندوش: من
أنت، ولم ستأخذ مالي، وإذا أخذته كيف سأطعم أُمي وأخواتي، وما سيصير بحالي؟

المارد: ارجع إلى كوخك الحقير وعد لبيع الفول هههههههه

عندوش: لك ما تريد فخذ كل ما تقدر عليه، وما تجده وما تعثر عليه!

جال المارد وجيشه في القصر، وفتشوه وقلبوه فلم يجدوا فيه شيئاً يُحمل فقد كان خاوياً على
عروشه لا شيء فيه؛ لا مال ولا ذهب ولا فضة ولا حتى طعام. فقال المارد لعندوش: أين المال يا
عندوش الملطوش؟

عندوش: المال في البئر قرب النهر تحت الجسر هيا لآخذكم إليه فتبعوه ومشى بهم حتى أوصلهم

البئر، وقال لهم: المال كله فيه في زاوية من نواحيه

مارد المال: انزل يا عندوش الملطوش قبلنا!

فنزّل عندوش إلى البئر بسرعة وصار يقول: يا مارد الفول يا مارد الفول!

مارد المال باستهزاء: لا تقول فول حتى تشوف ما في العدول ههههههههه

ونزل الجيش كله خلفه فانفجرت فيهم البئر وضغطتهم فصاروا يصيحون، ويبيكون ثم خرج من بين

جدران البئر خيط دخان تحول إلى ما يشبه الإنسان وقال: شببك لبيك مين اعتدى عليك؟

عندوش: هذا ومن معه، وقد جاء ليأخذ مالي وما أعطيتني من قروش، وظل يشتمني ويقول لي يا

ملطوش!

...

فانفجرت عينا المارد نارا حامية ونحاساً منصهراً يغلي، ونفت من فمه أسهما كثيرة من نار أحرقت

عصابة مارد المال، وأما مارد المال فهرب يبكي ويصيح ويقول: أوقعني في الفخ والله أوقعني في

الفخ، آه آه...

ورجع إلى قلعته العالية وأغلق على نفسه النوافذ والأبواب وصار يفكر بطريقة يستولي فيها على

مال عندوش وأرضه وقصره...

سعد بعد بعد

الحال الأولى في السجن

... "سوداء تلك اللحظة التي جمعت هؤلاء الرجال في هذه الغرفة الخشنة" هذا ما قاله الحارس الضخم الذي كان يربط أبواب الحديد بالسلاسل. لم تكن الغرفة التي جمعت هذه المجموعة من الرجال غريبة الملامح كما يتخيلها أطفال الرقاق حين تخوفهم أمهاتهم منها، لكنها كانت تحمل بصمة خاصة بها تعلق بالذاكرة؛ فقد كانت جدرانها كأنها أمواج من بحر مائج هائج من الرسوم المتعفنة والأفكار اليائسة والأعداد المتتابة والخطوط المتعرجة والعبارات المتشنجة، وكأن أرضها قطعة من أرض أهلكتها زلزال مدمر من الخوف والقلق والحزن والانتظار الملتصق بالأقدام، وأما هوائها فكان كتلة من الشك والظن والترقب وعلامات الاستفهام والنظرات والعبرات... لم يبق من أثر الحياة في عيونهم إلا وميضها، وتلك الهمسة الداخلية البعيدة التي تلازم أنفاسهم وهم يحاولون التعرف إلى تلك الغرفة القاسية الملامح المتولدة من أسواط جلادين متمرسين في التعذيب والتحقيق.

بعد أن مات صاحب العضلات المفتولة وهو يقول (لا)، لم يجرؤ هؤلاء الرجال على قولها، وظلوا يقولون دائما نعم، حتى في معاناتهم كانت ألفاظهم مبنية على (نعم) لم يكن أكبرهم وإنما كان الوحيد الذي حمل عباءة (لا) فوق ظهره وارتحل بها في كل مكان... جاءه الحرس من كل مكان في سجنه وحاصروه ومنعوه من مشاهدة الشمس ساعات طويلة وتنفس الهواء وتذكر الحياة ألصقوه بحائط الشبح كثيراً، وأسمعوه طويلاً ضحكات النساء وحفيف أوراق الشجر ثم قتلوه وألقوا جثته في الساحات وجروها على الشواطئ وعلى ممرات الطرقات وملأت

صورة جثته القصائد وتناقلت خبر مقتله كل أدوات نقل الخبر في العالم، كلها قالت مات، وظلت تردد الخبر عشر مرات في اليوم، وترفقه بألوان من التكرارات الصوتية واللونية والهمسية والنفسية... في الغرفة نافذتان تطلان على ساحة السجن المزروع في جزيرة من التراب والنفط والملح، وفي الغرفة سبعة أسرة وسبعة أفلام وسبعة دفاتر، وفيها سبعة رجال أصغرهم أحمد، الطالب الذي يدرس الفلسفة اليونانية ويعشق الفكر الأشعري ويحرص على قراءة كلام إخوان الصفا، وهو شاب في العشرينيات بلحية خفيفة وعينين من مجموعة كبيرة من الأسئلة. وخالد الكهل الأسمر في وجهه آثار جرح عميق غائر في وجنته اليمنى، وشعره أكثر أجعد ينتصب فوق رأس كبير ضخم وهو في العقد الثالث، وكان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى قبل يقرر الزواج؛ فهو عاشق الحركة الآلية، ويحمل بين يديه قصة ابن طفيل، وسيرة أسامة بن منقذ، وكان يحرص على أن يقول دائماً لكل من يعارضه أو يناقشه: "هناك بلاد غير هذه البلاد وأبواب غير هذه الأبواب ولغات غير هذه اللغة، هناك يا صاحبي هناك آراء غير رأيك وأفكار غير فكرك فقارن؛ لعلك ترى ما لا ترى أو تزيد يقينا وثقة بما تحمل".

أما سعد الشاب الطويل ذو العينين اليابستين فقد كان يملأ المكان بصوته العذب، حين يجري فيه مواويله الحزينة المبنية على الغزل وبأنفاس أولاد الجبال. كان سعد لا يحب الفكر ولا الأفكار، ويحمل الدنيا على راحة من اللعب والغناء ولا يكشف عما في داخله لأحد...

في تلك الليلة

قالت أمي: أتذكرون مارد المال؟

قلنا: نعم!

قالت: هل نجح في سلب عندوش ماله؟

قلنا بصوت واحد: لا لا!

قالت: اليوم سأحدثكم عن الغول أمّ الجدران والأسوار

فتحنا أعيننا حتى كامل استدارتها ووجهنا آذاننا إلى صوت أمي فكلمة الغول وحدها كانت

كافية لنصاب بالهلع

قالت أمي: دخل العراف الشيطاني على الغول وقال لها:

رأيت أنك مقتولة والقاتل إنسان، جدران جدران والقاتل إنسان

قالت الغول: وبلي وما العمل، قال لها العراف: الراي رايك والعمل عملك والروح روحك؟

قالت: أبني جدراننا عالية وأسوارا بعدها أسوار وأضع عفاريت الجن حراسا عليها؟

وسأقتل الناس وأواصل قتلهم، سأقتلهم من أراضيهم وبساتينهم وبياراتهم، سأقتلهم في كل

مكان وفي كل وقت..

دخلت الغول مدينة القمر قلبت بناياتها، وأحرقت بياراتها، وقتلت كل من رآته يمشي على

الأرض، وتوالت هجماتها على القرى والمدن، كانت تقتل وتحرق وتدمر بلا توقف، وكلما

عادت إلى قلعتها كان الكاهن الشيطاني يقول لها:

رأيت أنك مقتولة والقاتل إنسان، جدران جدران والقاتل إنسان

وكانت الغول ترتعد من الخوف وتصرخ بالعفاريت أعلوا الجدران أعلوا الجدران وارفعا الأسوار،

ابنوا هناك سورا وهناك سورا وهناك سورا

بقيت الغول تقتل البشر وتبني الأسوار وترفعها حتى صارت قلعتها حصنا حصينا عاليا تلفه

أسوار عالية متتابعة تحرسها عفاريت الجن

ازداد أنين القرى من ضربات الغولة فقد صارت تغير في كل وقت ولا تنفع في ردها شجاعة

الشجعان ولا قوة الإنسان فبعثوا في الأفاق من يستطيع أن ينقذ بني الإنسان من بطش الغول

فجاءته أن يتزوج بنت السلطان

كانت زبيدة من أجمل نساء الكون وكانت ذكية جدا وماهرة في كل شيء فهي تتقن القتال

بالسيف والرمح والقوس وتتقن الغزل والخياطة والطبخ وتعالج كثيرا من الأمراض ..

قالت لأبيها يا أبي أعلن في البلاد أن زبيدة ستتزوج من يقتل الغول..

وأعلن المنادي في الحارات الخبر وسار به الركبان في البلاد والأمصار والسهول والجبال والوهاد

وكان شاب اسمه عدنان شجاع صريح قوي مليح، لطيف فصيح اللسان، يعيش في قرية

بعيدة، ولما سمع الخبر وفهم الإعلان سأل عن ابنة السلطان كيف هي ومن تكون؟

فقالوا له: أجمل الجميلات وأذكى بني البشر. فدخل حبه في قلبه، وقال لأهل القرية: غدا

سأسير إلى بلاد زبيدة وأقتل الغول

وسار سبعة أيام بلياليها وواجه الأعاصير والبرد الزمهرير والضباع والكلاب والوحوش حتى

وصل مملكة زبيدة فوجد أهلها قد اختبؤوا في كهوف عميقة تحت الأرض لا يستطيع أن يصل

إليها باحث، يخرجون في الليل للزراعة وقطف الثمار لأن الغول لا تخرج في الليل

سلم عدنان على زبيدة وتحادثا طويلا فأعجبها ذكائه، وأدهشتها قوته وسعة حيلته فقالت له:
لولا أنني أعلنت في البلاد مهري لكنت وافقت على الزواج منك من غير مهر، ولكن كلمتي
قد خرجت والكلمة كالسهم.

فقال لها: وأنا لم أكن لأتزوجك وبلادنا على هذه الحال: رجالنا في سجون الغول أو في قبور
قد تكاثرت. غدا سأنطلق إلى قلعتها وأقتلها

في صباح ذلك اليوم في المدرسة في الصف الأول

في الصف الأول كان سعد يجهل كيف يلبس حذاءه، ويجهل أيتهما هي يده اليمنى، وأيتهما هي
قدمه اليمنى، وكان الجميع يقول له اليد التي تأكل بها هي يدك اليمنى، وأما قدمك اليمنى فهي
فوق اليد التي تأكل بها، وكبر وهو يظن ان تلك المقولة هي الصحيحة، وهو لم يعرف الفرق بينهما
إلا في حصة الرياضة حين اتجه زملاؤه لجهة يمين غير التي اتجه هو إليها.

وسعد يجهل كيف يربط حذاءه، وهو كثيرا ما وقف أمام بيته حائرا ينظر إلى أحذية زملائه وهي
مربوطة بصورة أنيقة، وعندما يسأله أحدهم لم لا تربط حذاءك كان يقول لهم أنا أحب أن اظل
مستعدا لخلعه إن هاجمني الشبح الأكبر فهو يخاف ممن يمشي حافيا ويهرب بسرعة، ألا ترى أننا لا
ننام بأحذيتنا، وأننا لا ندخل البيوت بأحذيتنا، فلو دخلنا البيوت بأحذيتنا لدخلها الشبح الأكبر
ولمسنا كلنا منه عذاب أليم، قال الأطفال ببراءة: صدق الله العظيم

في تلك الليلة

كان الرجال يتوافدون تباعا على دار أبي بسام الجمال وقد سبقهم جميعهم شيخٌ بلحية حمراء طويلة منسقة مقلمة مرتبة بعناية وجمال، وعلق برقبته سبحة كبيرة زيتونية، حظي بترحيب أبي بسام واهتمامه وتلطفه فقد قاده إلى صدر المجلس وأجلسه، ثم جلس من معه

رأى سعد السعود ذلك فأدهشه وأثار ريبته فقادته دهشته وريبته إلى دار أبي بسام فدخل مع الداخلين وجلس مع الجالسين، وصار يميل برأسه ذات الشمال وذات اليمين، وهو لا يعرف من أمر هذا المجلس شيئا، وظل على هذه الحال من ميل وميل وتسبيح وتهليل ساعة أو أكثر، وقد أتعبه ذلك السكون والخشوع والميل فكاد أن ينسحب من غير ما فائدة أو ضيافة، ولكنه صبر نفسه قائلا ما لي لا أصبر وأجلس كما يجلس بقية الناس لأنال ما ينالون والله لأصبرن وأفعلن ما يفعلون حتى أرى متى تنتهي هذه الليلة، ولم يطل سكوت الشيخ وصحبه فقد وقف وصلى على النبي وآله وأكثر ثم غنى وأنشد في مدح الرسول أغنيات تمايل عليها الحاضرون وهم يرددون في كل أنشودة لازمة تثير الحماس

الشيخ: صلى الله على محمد صلى الله عليه وسلم

الجمع: صلى الله عليه وسلم

استمتع سعد السعود بما قدمه هؤلاء القادمون من بعيد، وأكل من البلية ما ملأ بطنه ولما رأى أنهم يكثرن النظر إلى سبحاتهم الزيتونية ظن أن الأناشيد المطربة مكتوبة على حباتها فهي كبيرة وكثيرة والأناشيد كبيرة وكثيرة وماتعة فقرر أن يكتشف الأمر من مصدره فاقرب من الشيخ والعيون ترقبه والأيدي تنهه والعيون تجحره وجلس إلى جانبه مما أقلق الشيخ وصحبه، ولكنه لم يستطع أن

يكشف عما يعتمل فيه من قلق مما يجنبه هذا الطفل الغرير الذي جلس إلى جانبه، وحدث ما كان يخشاه الجمع فقد أمسك سعد السعود بسبحة الشيخ وشدها، فانتفض المجلس كله وقامت إلى سعد الأيدي لتسحبه ولكنه تعلق بسبحة الشيخ وأبى أن يتركها والشيخ وصحبه واجمون، ولم تنفع محاولاتهم ولا جزراتهم ولا حتى تهديداتهم في فك الحصار عن سبحة الشيخ، وفجأة شد سعد السبحة من عنق الشيخ وانتزعها وولى هاربا والجمع خلفه يشتم ويلعن...

في صباح ذلك اليوم

صباح العيد على المقبرة

منذ منتصف الليل والقرية لم تهدأ فالأطفال مشغولون بتوديع رمضان وملاحقته في الممرات الترابية، وأما البنات والصبايا فكن مشغولات بتجهيز أنفسهن وملابسهن لاستقبال العيد، وبعد أن أنهين يوماً طويلاً وليلاً متعباً في تنظيف البيوت وإعدادها لاستقبال الضيوف، استيقظ الجميع قبل أن تداعب الشمس نوافذ بيوتهم بأصابعها، تمطوا قليلاً ثم ركبوا أحذيتهم وأسرعوا إلى المسجد ليكبروا تكبيرات العيد في حلقات متناغمة يقودها الإمام. أما أبو سعد فكان يبحث عن سعد السعود وييده القرآن الكريم..

- ولك وين كاين يا مقصوف الرقبة؟

- كنت أفتش عن رمضان يابا؟ وانحنى على يد أبيه يقبلها وهو يقول له: كل عام وأنت بخير يا أبي،

هذا ما طلبته منه أمه ليأخذ عديته منها ربع الدينار

- يجعلني أعدمك، امسك ولك امسك! وناوله القرآن الكريم وظلت يدا أبيه ممسكتان بيدي سعد

الصغيرتين بقوة وخشونة، وعيناه تنظران إلى عينيه وتصبان فيهما بحارا من الحب الباطن والتهديد

والوعيد الظاهرين

سكت برهة ثم قال: اسمع ما أقوله لك، احمل القرآن واذهب إلى قبري سيدك وستك، وظلك

هناك، اقرأ القرآن فوق رأسيهما إلى أن آتي لأقرأ الفاتحة على روعيتهما، فهمت؟ ويا ويلك يا ظلام

ليلك إذا بتنزل عن المقبرة قبل ما أحضر أنا! ثم تركه وذهب مسرعاً إلى المسجد

حمل سعد السعود القرآن، وسار وهو يفكر بجديّة التهديدات التي تلقاها، وقسوة النظرات التي رافقت هذه التهديدات، كان الطريق إلى المقبرة متعرجا يمر برمانات أبي العز، وصبرات أم سالم، وتينات صفية السواديات والخزمتانيات والموازيات والفرصة سانحة ليشيع مما لذ وطاب... فرح كثيرا أنه انتقى حبات الرمان بهدوء وروية، لكنه عانى كثيرا من أشواك الصبر التي قزعها بيديه، وجلس على القبر يتناول غنيمته، وما كاد ينهي طعامه حتى توافدت النساء على المقبرة باكيات صامتات دامعات وفي أيديهن أصناف من الطعام والشراب، وتوزعن على القبور كل يبكي على موتاه، واضعات الحلوى والأطعمة على القبور، فوضع سعد القرآن على قبر جده، وسار بين القبور كالقط يبغي الطعام، فوجد ما أراد عند تلك الوجوه الدامعة الباكية فقد امتلأ حجره كعكا وأقراصا وحلقوما وحلاوة فحملها وسار إلى قبر جده، وما كاد يصل إلى القبر حتى داهمه ما كان يخشاه من غضب الأب فقد أمسكته يد غاضبة من حديد ومطرق رمان، جعلته يملأ الأرض بما جمع والسماء بأصوات من وجع..ونال من الضرب ما يعجز عن وصفه وتماوت حتى أفلته أبوه، فاستغل تلك الفرصة للهروب، فركض وركض وابتلعتة الدروب...

على وجع تراخت أضلاع سعد وهو ينسل من بين قصب المكانس إلى حوش آل محمد هربا من عصي والده. كانت أم العبد ما زالت في الطابون تنتظر فطائر العيد فقد اضطرها الدور إلى أن تكون الأخيرة بين الخابزات..رأت أم العبد سعدا وهو مضرج بدمه ودموعه فأشفقت عليه وناولته قرقوشة أعادت له السعادة والصفاء والهناء، وجلس عندها يراقب كيف تفعل حرارة الزيل بالأرغفة الصغيرة

قالت له أم العبد: ولك شو سويت يا مقصوف العمر؟

- ولا شيء وهز رأسه. ببراءة لا يتقنها إلا هو

ضحكت أم سعد وقالت: أنت دائما بريء؟ وقد تذكرت وهي تنظر في عينيه النظرة نفسها التي حملها في ذلك اليوم الذي جعل سيرتها على كل لسان في القرية، حين استغل خروجها ودخل غرفتها ولبس ثوب العرس الذي تحتفظ به حبا بذلك اليوم الذي جمعها بأبي العبد، وصار ينظر إلى جسده الصغير في ذلك الثوب الأبيض، ويمشي في كل اتجاه ليعرف شعور العروس وسبب بهجتها حين تلبسه، فإذا بأبي العبد يدخل الدار وينادي: يا أم العبد، يا أم العبد! ولما لم ترد، توجه إلى غرفة النوم وهو برم متدمر لعدم ردها فاختبأ سعد في السرير وهو لابس ثوب العروس.. شاهد أبو العبد أطراف ثوب العروس فقال: هسع وقته يا أم العبد؟! قومي قومي اعلمي لي كاسة شاي، وغيري ملابسك بسرعة، فقد رأيت جارنا أبا سالم وزوجته في طريقهما إلينا، ولما لم ترد أم العبد، ولم تتكلم، أمسك أبو العبد بالغطاء بعصبية وسحبه عنها فوجد سعدا قد تقوقع في وسط السرير فانفجرت عيناه من الغضب وانتزعه بعصبية وحمله بثوبه إلى أبيه وصار ينادي ويصرخ ويشتم والسامعون يضحكون ويتغامزون.. نظرت أم العبد إلى سعد وهو يلتهم الأرخفة الصغيرة بنهم وشغف ومنتعة فسعدت لسعادته

خرج سعد من الطابون وهو يقطر عرقا وحرارة ومشى في الممر الترايبي المليء بقصب المكانس باتجاه داره لكنه تراجع وتوقف..

- " إن عدت إلى الدار وأبي غاضب فستكون نهايتي، سأذهب إلى الحاورة وهناك سأختبئ في

المغارة وأكل من التينة السوداية ودالية جارنا..."

مع لعنة الأندلس

قال المعلم والدهشة تملأ محياه: توقف يا سعد، توقف يا سعد. وقال للطلاب اسمعوا جيدا واعلموا أن هذا الطالب قد مكر لكم في ليل، وأنا كلنا مجبرون على سماع ما في الدفتر الذي معه حتى النهاية وإلا أصابتنا لعنة الأندلسيين، ستصيبنا لعنة لا نعرف طعمها ولا لونها ولا أثرها فإياكم أن تتغيبوا عن سماع ما في الدفتر وإلا نالت كل من يتغيب لعنة الأندلس... ضج الطلاب ونقلوا الخبر إلى أهل القرية الذين صوبوا كل دعاء مر إلى رأس سعد الذي ورط أبناءهم في البلاء، وعرض القرية لهذا الشقاء.. وصاروا يحرصون على أن يوصلوا أبناءهم إلى المدرسة في كل صباح حتى لو كانوا على فراش الموت فهم ليسوا على استعداد لتحمل لعنة أخرى، وبخاصة لعنة الأندلسيين...

الحال الثانية انتصار

اعلموا أن أول من سكن الأندلس قوم يعرفون بالأندلش بشين معجمه فسمي البلد بهم ثم عرّب بعد ذلك بسين مهملة. والنصارى كانوا يسمون الأندلس اشبانية باسم رجل صلب فيها يقال له اشبانس وقيل: باسم ملك كان بها في الزمان الأول اسمه إشبان بن طيطس وكان هذا إشبان قد وقف عليه الخضر وهو يحرق الأرض فقال له: يا إشبان سوف تحظى وتملك وتعلو فإذا ملكت إيلياء فارق بذرية الأنبياء. فقال: أتسخر مني كيف ينال مثلي الملك؟ فقال: قد جعله فيك من جعل عصاك هذه كما ترى. فنظر إليه فإذا هي قد أورقت فارتاع وذهب عنه الخضر وقد وثق إشبان بقوله فداخل الناس فارتقى حتى ملك ملكاً عظيماً وكان ملكه عشرين سنة ودام ملك الإشبانيين بعده إلى أن ملك منهم خمسة وخمسون ملكاً.

ثم أكمل سعد قراءة المکتوب ورفع صوته لیسع الجميع ما كتب صاحب اللفائف المحبوب: أما وقد عرفت أن في قراءة ما أكتب مخاطرة وأي مخاطرة فهي قد تجلب لك لعنة أهل الأندلس وأعوأهم من الجن والحرس فاسمع قصتنا إلى النهاية فإنني سأرويها لك من البداية

فبعد أن ولّى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك قائده موسى بن نصير على المغرب، وجه السرايا لفتح طنجة ففتحها واستوطنها، وترك بها حامية مدربة خير تدريب يقودها مولاه طارق بن زياد، ومنذ ذلك الحين بدأ طارق يتطلع لفتح بلاد الأندلس التي لم يكن بينهم وبينها إلا خليج يسير، وكان ميناء سبته هو أقرب المدن إليه، وكان حاكمها هو الكونت يوليان الذي كان نائباً للإمبراطور البيزنطي لذريق حاكم طليطلة، ولكنه تحرر من سلطان الدولة البيزنطية، وأصبح كالحاكم المستقل في سبته وما حولها، بسبب أحقاد كانت بينهما، وذلك أن لذريق اعتدى على

عرض ابنة يوليان بعد أن بعث بها إليه لتخدمه واستأمنه عليها. وكان موسى بن نصير قد عرف بما بين هذين الحاكمين من خلاف وفرقة فأفاد من هذه الخصومة فقد راسل يوليان حتى كسب وده، وصار دليلنا في تلك البلاد

وقد أدرك موسى بن نصير أن البلاد وأهلها قد يئسوا من حكمهم، من جورهم وظلمهم وأحكامهم ولهوهم ولعبهم وإهمالهم لأمر الرعية، وتنازهم وتقاتلهم واقتتلهم فكتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك يستأذنه في فتح الأندلس ليخلص أهلها من الظلم ويخرجهم من الظلمات إلى النور، فرد عليه بالنصيحة والسلام وقال له أيها الضرغام خضها بالسرايا لا بالجيوش حتى ترى وتختبر شأنها وتعرف قوتها وقدرها، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال كثير الأحوال ”، فكتب إليه موسى مبيناً له أنه ليس ببحر خضم، وإنما هو خليج يبين للناظر منه ما خلفه ”، فرد عليه الوليد بأنه لا بد من اختباره بالسرايا

فأرسل موسى طريفاً البربري في مئة فارس وأربعمائة رجل، وجاز البحر في أربعة مراكب، مستعيناً بيوليان، في شهر رمضان سنة ٩١ هـ، وقد سار حتى نزل ساحل البحر بالأندلس، فيما يحاذي طنجة، فأغار على الساحل سلسلة من الغارات السريعة انتصر فيها، وغنم فيها الشيء الكثير، ثم رجع سالماً غانماً، وكان في ذلك تشجيع لموسى بن نصير على فتح الأندلس.

ولما عاد طريف انتدب موسى لهذه المهمة طارق بن زياد، فركب البحر في سبعة آلاف من المسلمين، أكثرهم من البربر فقاد طارق هذا الجيش البحري بحنكة ودهاء وأرسى سفنه عند جبل في رجب سنة ٩٢ هـ، ففتح الجزيرة الخضراء وغيرها، وبلغ لذريق نزول المسلمين بأرض الأندلس،

فعظم ذلك عليه، وكان غائباً في بعض غزواته، فجمع جيشاً جراراً بلغ مائة ألف وعلم طارق بما أعده لذريق.

وكتب طارق إلى موسى يطلب منه المدد ويخبره بما فتح الله عليه، وأنه قد زحف عليه ملك الأندلس بجيش عظيم جرار، فبعث إليه موسى بخمسة آلاف مقاتل معظمهم من العرب، فأتاهم لذريق في جنده والتقى الجيشان على نهر لكّة، يوم الأحد لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢هـ، واستمرت المعركة ثمانية أيام، وأخذ يوليان ورجاله يخذلون الناس عن لذريق ويقولون لهم إن العرب جاؤوا للقضاء على لذريق فقط، وإنكم إن خذلتموه اليوم صفت لكم الأندلس بعد ذلك، وأثر هذا الكلام في الجنود فاضطرب نظام جيش لذريق، وفر الكثير منهم، وخارت قوى لذريق لما رأى جنده يفرون أو ينضمون للمسلمين، وهجم طارق على لذريق فضربه بسيفه فقتله، وقيل: إنه جرحه، ثم رمى لذريق بنفسه في وادي لكّة فغرق.

وبعد هذه المعركة فتح طارق شذونة ومدورة، وقرمونة...، واستمر في زحفه حتى انتهى إلى عاصمة الأندلس " طليطلة " ففتحها، وحينها جاءت الرسائل من موسى بن نصير تأمره بالتوقف.

ودخل موسى الأندلس في رمضان سنة ٩٣ هـ في جمع كثير قوامه ثمانية عشر ألفاً، ففتح المدن التي لم يفتحها طارق كشدونة، وقرمونة، وماردة...

أقل سعد الدفتر ووضعه في جيبه القماشي والطلاب واجمّون خائفون مع أن خبر الأندلس أمتعهم وخفف مما يحسون به من قلق وخوف

ليلة أخرى

..وجاء الليل بطيء مشيه ثقيلًا ظله، والرجال في المضافة على قلق وانتظار فدخل أبو إسماعيل
وسلّم ثم جلس وتكلم وحكى:

قال الدهقان: يا عفاشة أما وقد وصلنا الغار الذي فيه الكنز والأسرار فيني أطلب منك أن تدخل
لتأخذ لوح الزمرد ولكن عليك أن تفعل ما أقول وتسير على ما أرسمه لك وإلا فأنت المسؤول.

قال عفاشة: سمعا وطاعة سأفعل ما تقول، وأمشي على خطتك من هذه الساعة؟

قال الدهقان: فادخل الآن، وأنت مغمض العينين، ومغلق الأذنين، وقرأ في مشيك هاتين
الجملتين: سر بر أنا مش هر وكررها ثلاثا فإذا وصلت طرف الصندوق وأمسك الرصد النحاسي
فقل: شاش مات وعاش، وكررها ثلاثا، ثم افتح عينيك وأمسك الصندوق بيدك اليمنى، ولا تحرك
يدك اليسرى، ثم افتح الصندوق وامسح الرصد النحاسي مسحة لطيفة على رأسه. وقل "كاف
كل اللي في الصندوق انشاف"، ثم احمل لوح الزمرد، فهو ملفوف بالقماش، واحمله ولا تنظر
إليه.. واخرج كما دخلت، وإياك إياك أن تفتح عينيك، وإن أحسست أن الماء يحاصرك ويجرفك
فلا تخف، وامض في طريقك، وإن شعرت أن النار تحرقك فلا تخف وامض في طريقك، وإن
سمعت صوتا كهده الجبال يعلو ويعلو ويشق المدى ويهز الأرض فلا تفتح عينيك.. ودّع عفاشة
الملك سيف والحكيم دهقان ودخل إلى الكهف وهو مغمض عينيه ومقفل أذنيه، ومشى في ممر
ناري فيه دفع عظيم وجذب شديد يضيق ويتسع على عظامه، وهو صابر على ما يصيبه ويديمه،
لا يفتح عينيه ليرى ماهو وما يلاقيه، ثم قال: "سر بر أنا مش هر" وكررها ثلاثاً وظل على هذه
الحال حتى وصل المكان المقصود، والمراد المحمود، فتحسس مكانه فوجده بين يديه، فألقى يده

اليسرى عليه وقال: شاش مات وعاش، وكررها ثلاثا وفتح الصندوق، وتحسس مافيه ومرر يده على نواحيه حتى تلمس تمثالا من نحاسٍ كبيرِ الرأسِ فمسح بيده على الرأس، فصدر صوت من الصندوق هز الغار هزات فارتعد عفاشة وخاف وتسمر في مكانه كالصخرة، ثم بدأ يحس الماء يفور من الصندوق فورانا، وينضح منه نضخا حتى وصل فوق رأسه، وأحس عفاشة أنه غارق لا محالة، وبدأ الكهف يضيق عليه ويعصر جسمه ويضغط عليه، فتسمر في مكانه بلا حراك...

ولما طال مكث عفاشة في الكهف عرف الحكيم أن سيده في ورطة، وأن المساعدة صارت لازمة، فأغمض عينيه وأسرع إلى داخل الغار فوجد عفاشة في أسوأ حال فسحبه من يديه وجره إليه وأخرجه من الغار كأنه سهم من نار...

ولما وصل فم الغار ارتاح، وإلى اللوح أشار، وقال يا عفاشة، اسمع وأطع، احمل مهر عروسك من فورك وأرها طرفه فإنها إن رأت طرفه انعقد لسانها وارتبط، وشلت حركتها وبهتت، وسترجوك، إن كانت تحبك، أن تعيده إلى مكانه، وإن لم تكن بك راغبة قالت لك هاته، وعندها تعرف معرفة حقة أنها لا تحبك، ولا وتريدك، وأن الجان قد استولى عليها

فحمل عفاشة اللوح بجزر، وسافر إلى بلاد الحبيبة، ودخل من بابها الواسع وقت السحر، فأسرع إلى بيت الحبيبة وهي بين صويجاتها تحكي لمن عن صفاته، وتحلف بحبه وحياته، فسلم فردت السلام وقالت له هل جلبت معك مهري فكشف عن طرف اللوح فوقفت حركتها وانعقد لسانها فقال لها: هذا مهرك يا غالية فخذيته فنظرت إليه وهي تريد أن ترد ولا تستطيع فعرف أن اللوح قد كبلها وربطها وأثقلها فغطاه فقالت يا عفاشة قد رضيت بك زوجا فأعد هذا اللوح إلى مكانه، وأرجع هذا الموت جرابه ففرح وطار مسرعا يحمل النبا العظيم والخبر الجميل بأن دهنشة تمواه، فلما

وصل قصر الملك سيف، سلّم وعظّم ثم تكلم، ففرحوا لفرحه واتهجوا لبهجته، ورافقوه إلى الكهف فدخل فيه كما دخل أول مرة، ووضع اللوح في قماشه ومسح على رأس الرصد النحاسي وخرج وهو فرح مبسوط

ثم إن الملك سيف قال لهم: يا جماعة! إن هذه والله أجمل ساعة، تعالوا فإني قد جهزت لعفاشة أجمل الهدايا، وساروا جميعاً ملوك الجان وأعوانهم وملوك الإنس ومساعدوهم حتى وصلوا ساحة عظيمة خضراء حواليتها يجري الماء، وفوقها تتراقص الخيول العربية الأصيلة، فنادى سيف بصوته صوتين فركضت نحوه الجياد ولما وصلت عنده قال لعفاشة: هيا انتق واختر لك فرسا أو حصانا ولا تتردد في الاختيار ونسي أن يعزل فرسه الياقوت عن القطيع فنظر عفاشة وتملى وحسب وتحسب ولما رأى الياقوت فرس الملك سيف أعجبته وسحرته وتعلق بها فأشار إليها، فطن القوم بأفواههم وأصابتهم سكتة وعلتهم رعدة فلم يجيبوه إلى طلبه، واستحلفوه أن يختار غيرها فالخيل يملأ الإسطبل ولكنه أبي إلا هي، فقالوا له "هذه الياقوت وهو فرس الملك سيف، وتذكر أنك الضيف فأصر عليها وصار يشير إليها فلما عجزوا عن إقناعه استسلموا لما أمر وأحضروا إليه الفرس، وهمّ بركوبها فأبت وحاول ثم حاول لكنها استعصت عليه فأمسكوها من جانب حتى ركبها وأمسك الزمام وما كاد يفعل حتى طارت في الفضاء وناطحت أعالي السماء فخاف وارتعد وطلب منها الرجوع إلى الأرض، ولكنها أبت إلا الطيران والتحليق والدوران ولما تعبت نزلت إلى الأرض وما أن وصلت حتى ألقى عفاشة بجسده إلى الأرض يقبلها، ويحمد الله أنه عاد سالماً معافى، ثم وقال لهم أعيدها فلا طاقة لي عليها فضحك القوم وارتاحوا من الغمة....

قال أبو إسماعيل: وقال الراوي يا سادة يا كرام إن عفاشة وسيفا مشيا إلى قصر دهنشة وعلم الشر وأعوانه بذلك فعزموا على قتلهما، فأرسلوا إليهما غولا وضباعا وأسادا جياعا، وكان الملك سيف يتكفل بموتهم وقتلهم خنقا أو بالسيف وظلوا يقتلون ويقاتلون حتى وصلوا قصر دهنشة ودخلوا وهم في دماء أعدائهم غارقون فسلموا على الملك وجلسوا في الصدر، فسأله الملك: من هذا الذي معك يا عفاشة؟ فقال عفاشة: هذا الملك سيف صاحب الشجاعة الهمام مكرم الضيف والضارب الشر وأعوانه بالسيف. فرحب به أحسن ترحيب وأجلسه إلى جواره، وصار يسأله عن أخباره، وتناقشا في أمور البلاد والعباد ساعات طويلة، واتفقا على التعاون والتشارك، ثم طلب الملك سيف يد دهنشة لعفاشة، فوافق الملك فأقيمت الأفراح سبع ليالٍ وستة أيام ذبحت فيها الأبقار والأغنام والإبل، وطبخ الطباخون ورقص الراقصون...

رحل عفاشة والملك سيف والحكيم دهقان ومعهم العروس في ممرات ترابية جبلية وعرة حتى وصلوا مملكة الساسان، وهناك أناخوا النوق وأرحوا الخيل، ونزلوا في خان لسيدة عجوز.. علم ملوك الساسان بقدوم الملك سيف فتداعوا إلى الخان هرولة وركضا وتراحموا على لقاء الملك سيف، وقالوا له يا ملك العرب والعجم لو أنك أخبرتنا أنك قادم إلى بلاد الساسان لكنا عرفنا كيف نقوم بواجبك واستقبلناك بما يليق بك، فقال لهم الملك سيف أنا ما خططت للمجيء ولكنها الأقدار ساقتنا إليكم لنسلم عليكم.. ثم أمروا الحماليين أن يحملوا متاع الملك وصحبه وحلفوا عليه ألا يبيت إلا في قصورهم ثم إن ملك الساسان أهدها الجوارى والخدم ليخدموه، وأنزله في قصره، وقال له: البلاد بلادك والعباد عبادك فأمر تطع؛ فأنت ضيفنا المحبوب المرغوب

استفاق الملك سيف في الصباح على أصوات الناس المرحين تهتف باسمه وترحب به وتنشد أشعارا عن قصص بطولته، فنظر من نافذة القصر فرأى جموع الناس تتدافع إلى القصر هاتفة معظمة مرحبة مهلية، فلبس ملابسه وخرج إليهم لشكرهم على حسن ضيافتهم..وبقيت الناس تتجمهر عند أبواب القصر ثلاثة أيام حتى ازدحمت ساحات المدينة بهم وبجمعهم فقال الحمد لله الذي أدخل حيي إلى قلوب الناس فهذا الحب منحة من الله وهبة.. وفي اليوم الثالث أعد ملك الساسان للملك سيف مأدبة عظيمة ودعى إليها ملوك الإنسن والجان وكل إنسان من ذكر وأنثى وصغير وكبير، وجلس الملك سيف في صدر المجلس وقال: بسم الله الرحمن الرحيم وبدأ الأكل باليمين وبينما هو غارق في أكل الرؤوس وقطع الأفخاذ وتفسيح الرقاب ناولته صببة كوبا من الماء البارد فرفع رأسه ليشكرها...

سكت أبو إسماعيل فقال له سعد يا أبا إسماعيل ليش تعمل بنا هذا أكمل ولا تجعلنا ننتظر فقد أحرقنا الانتظار

ضحك أبو إسماعيل، ثم قال: على رأسي يا شقي سأكمل لأجلك نعم لأجلك وضحك أهل القرية وحمدوا الله أنهم لمسوا من سعد خيرا..قال أبو إسماعيل قال الراوي يا كرام إن الفتاة لما ناولت الملك سيفاً الماء رفع رأسه ليشكرها فشاهد واحدة من الحور العين تمشي على الأرض فسحره جمالها، فسأل عنها فلم يعرف أحد من هي؟ وصار يجمع إليه الملوك ويسألهم واحداً واحداً فلم يعرفوها، وقالوا إنهم ما رأوها وبقي الملك سيف في بلاد الساسان أكثر من أسبوعين، فقال له عفاشة يا سيدي بلادك تناديك وشعبك يحتاج إليك، فقال يا عفاشة اذهب إلى نائي حرحور وقل له الملك يسلم عليك ويقول:

حكّم سيوفك في الأمور المعضلة لا تسترح والزم حدود المسألة

سأغيب يوماً لا تقل أين الملك واحكم رعيتنا وعدلي أوصله

وطلب الملك من عفاشة أن يسرع إلى حرحور فركب حصانا كالسهم وأخذ الطريق الصعب
المختصر، ولم يسترح إلا في بلاد اليمن، ودخل على حرحور وقال له الرسالة، فقال حرحور لبيك
يا سيف أمرٌ مولانا سيف..

حكم حرحور البلاد كما كان يحكمها سيف ولكن بعض الحاسيدين أحسوا بغياب الملك سيف،
فصاروا يكيّدون لحرحور ويمكرون له حتى أوقعوه في أزمت عظيمة ومصائب مهلكة، ومصاعب
مهلكة

فلم يستطع حرحور السيطرة على كثير من أمور الدولة، وقد هجم عليها الجراد واجتاحها الطوفان،
وأهلك الصقيع الزرع والضرع، وبدأت عصابات اللصوص تسطو على القرى وتسرق الثمار والمؤنة،
وانتشر الظلم وأكل الحقوق فعمت الفوضى وسادت، وصار خطف الأطفال مهنة رائجة، وقتل
الآمنين أمراً سهلاً بسيطاً، فخاف الناس على أولادهم فلم يرسلوهم إلى المدارس والكتاتيب
فكسدت بضاعة العلماء وأقبل الشباب على الموت المجاني ييغون الخلاص، وشغلت النساء أخبار
الراقصين والراقصات، والمطربين والمطربات، وانتشرت الخانات في الخانات وصار هم الأسياد جمع
المال وقطف المتعة من نبعها، وبدأت الأعداء تتحيف البلاد من كل ناحية حتى احتلت أكثرها،
وفرضت عليها الأتاوة، فنادى الناس ربهم وتضرعوا إليه واستغاثوه واستنصروه، ورجوه أن يبعث لهم
سيفا بن ذي يزن، وعلا هتافهم حتى تجاوز الصدر " يا الله ابعث لنا سيفاً، أين أنت، يا سيف،

الحقنا يا سيف أنقذنا يا سيف... وعاشوا على حلم أن يعود سيف لينقذ البلاد والعباد

أما سيف فقد هام في بلاد الساسان يبحث عن الساحرة الفاتنة في كل مكان، ولم يعثر لها على أثر، فقال أعود إلى ملك الساسان، وأسأله أن يجمع لي الناس في مكان؛ عليّ أعرس عليها وألتقيها...

وعاد سيف إلى قصر ملك الساسان فرحّب به أحسن ترحيب، وقال له: عسى ما شر؟ فقال له: يا ملك الساسان، أيها الصديق الحبيب الإنسان، وسرد له القصة من أولها حتى رجوعه إلى قصر الملك، فتبسم الملك وابتهج، فقال له الملك سيف ما لك ابتسمت وعند سماعك ألمنا طربت؟!؟

فقال الملك: معاذ الله أن أطرب لألم الملك سيف ولكن الفتاة التي سحرتك هي ابنتي لجين وهي التي أصرت على خدمتك لإعجابها بك فقال له الملك سيف: الحمد لله فإني أخطبها منك الآن، فقال له ملك الساسان: قد وافقنا ولكن أمر البنت في يدها سنستشيرها، فدخل الملك على ابنته يستشيرها فهزت رأسها حياء

فخرج الملك يحمل البشارة، وقال للملك سيف قد وجدتها بك راغبة ولنا أن نطلب منك المهر!

فقال له الملك سيف مهرا يجب أن يكون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، فلتطلب وتتمنى!

سمعت لجين كلام الملك سيف فقالت مهري أن تعديني ألا تقول لي كلمة (لا) أبدا

فقال لها الملك سيف لن أقولها لك ما دمت لله طائعة ولزوجك نافعة، فقالت الآن اطمأن قلبي

إليك. فأعلنت الخطبة... وأقيمت الأفراس التي لم ير مثلها من قبل إنس ولا جان لمدة سبعة أيام وفي

كل يوم كان الناس كلهم يأتون من كل فج عميق ليرقصوا ويأكلوا ويرحلوا...

وسار إلى الملك سيف إلى مملكته مع عروسه ولما وصلها كان الخراب قد طال كل شيء فيها

فعرف أن شرا عظيما بانتظاره وأن مارد الشر قد ركز خيامه وأوتاده في داره

فحمل السيف سيفه ورمى ترسه، وهجم على الغازين ولما رأى الناس أن الملك سيف قد عاد

هجموا على كل يد مارقة سارقة وقطعوها واستمرت المعركة ثلاثة أيام بلياليها وقتل أهل الشر شر

قتلة، وهرب منهم من هرب، واستسلم من استسلم، وعاد إلى بلاد اليمن جماها وعمها العدل

والأمان

ولكن مارد الشر كمن لزوجة عفاشة واختطفها وهرب بها، فلما سمع الملك سيف بالخبر أعد جيشا

عظيما وسار به إلى قلعة المارد الحصينة المنيعة ذات الأسوار العالية.. وأخذ المارد يضربهم من فوق

بالحجارة حتى قتل منهم خلقا كثيرا، وهو مغلق منافذ القلعة بالزيت والنار... ثم سكت أبو إسماعيل

وقال نكمل يا سادة يا كرام غدا إن شاء الله

أغضب هذا سعدا فهو لا يحب الانتظار ويكره أنصاف الأخبار فانتظر وراقب أبا إسماعيل

وعرف أين يضع كتابه، وانتظر حتى انصرف فتسلق السور والجدران حتى وصل إلى الكتاب

فوضعه في حضنه وهرب كالقط من النافذة ولم يشعر به أحد... وصار في كل يوم يقرأ ما فيه

في الخفاء ما يشاء وبعيدا عن أعين الرقباء

في المدرسة

الحال الثالثة تفكك وفوضى

قرأ سعد اللغافة الثانية كما طلب منه:

رسول الوالي: أمر أميرنا يزيد ابن أبي مسلم والي إفريقية والمغرب أن يوسم على يد كل امرئ من

حرسه عبارة "حرسى البربر، حرسى حرسى"

قائد الجيش: ماذا تقول، أجن أميرك يا فتى؟ اذهب إليه وقل له إن البربر ليسوا إبلا لأبيك وجدك،

لن يقبل البربر بهذا، قل له إنهم ملوا سيرتك وإنهم قادمون لقتلك...

ودب الجنود البربر بعضهم إلى بعض وتضافروا على قتل الحاكم فقتلوه، فقد خرج ذات عشية

لصلاة المغرب فقتلوه في مصلاه. ومن هنا بدأت سلسلة لا تنتهي من القتل والثأر والتآمر الذي

استمر وطال كثيرا من الحكام والعباد... وقد ضعفت البلاد بسبب هذه الخلافات وحرص الأمراء

والولاة على الكراسي التي لاحقتها المؤامرات والفتن. وجاء زمن بدأت فيه القبائل بالاستقلال

بالأطراف، وكان أول من بدأ بالاستقلال "بنو عباد في اشبيلية"، ثم بنو زيري في غرناطة، ثم بنو

هود في سرقسطة، ثم بنو ذي النون في طليطلة، ثم بنو عامر في بلنسية، ثم بنو الأفطس في

بطليوس، وبقيت قرطبة في يد بني حمود ثم بني جهور....

الحال الرابعة

محمد بن عباد والجارية "اعتماد الرميكة"

قال محمد بن عباد لوزيره: أجزني

فقال ابن عمار: زرد زرد

ولمن لا يعرف محمد بن عباد" أقول هو ولد الخليفة المعتضد بالله ملك اشبيلية..

وقد كان شاعرا رقيقا محبا للناس محبا لمعاشرتهم...

- أجز يا ابن عمار أين شيطان شعرك؟

كان محمد بن عباد يتمشى مع صاحبه ابن عمار الذي سيصبح وزيره فيما بعد عند مرج الفضة،

وبينما هما يتمشيان عند ضفاف النهر بين زهور تتغنى بالوداعة والجمال والرقّة..نظر محمد بن عباد

إلى تموجات النهر بفعل الرياح وقال:

"صنع الريح من الماء زرد"

و طلب من ابن عمار أن يجزه فأخذ ابن عمار يفكر:

"صنع الريح من الماء زرد" زرد زرد

ثم ماذا يا ابن عمار..؟ ولكن دون جدوى.. كأن الله أراد أن يخرسه.. لينطق تكملة البيت على

لسان الجارية"اعتماد"..التي سمعتها بينما هي تغسل الثياب عند حافة النهر..

- "أي درع لقتال لو جمد"

فكان هذا الشطر سبب سعادها وشقائها فيما بعد. فما إن سمع محمد بن عباد ما قالته حتى افتتن بجمالها وبسحر نظمها وبسرعه بديهتها وذكائها.

عرف "محمد بن عباد أنها جارية الرميك ابن الحجاج، فأرسل الخدم والمزينات ليخطبوها له، ويحملوها إليه زوجة حرة، وكان محمد ولها بها، يكن لها محبة خاصة، ولا يصبر على فراقها ساعة، حتى إذا مات أبوه المعتضد، وتولى من بعده الحكم اشتق لقب الملك من حروف اسمها فسمى نفسه "المعتمد بالله بن عباد" من اعتماد، لتخلد محبته لها في أخبار التاريخ.

عاشت اعتماد مع محمد بن عباد في رفاهة وعز فاق الوصف، وحظيت عنده حتى كان لا يرد لها طلبا.

ومن ذلك أنها في يوم من الأيام رأت نساء من البادية يبعن اللبن يخضن في الطين وقد شمرن عن سوقهن وسواعدهن، فقالت: اشتهي أن أفعل أنا وبناتي.. كفعل هؤلاء البدويات، فما كان من "ابن عباد" الملك إلا أن بادر الى تلبية طلبها؛ فأمر بالعنبر والمسك والكافور فسحقت بماء الورد لتكون في هيئة الطين وأحضر القرب والحبال لاعتماد و"بناتها فحملن القرب والحبال، ورفعن عن سوقهن وخضن في طين العنبر والمسك والكافور.

المعتمد: اعتماد غاضبة، من أغضبها وكيف ولم؟!!

الحاجب: أنتم أغضبتموها يا أميرنا؟

- نحن، يا ويلاه، ويا بؤساه!

يركض مسرعا إليها

- اعتماد! يا اعتماد ، ما بك يا أم الربيع؟

- والله يا المعتمد ما رأيت منك ولا عندك يوما جميلا أو راحة، ولم أر منك خيرا قط؟

فقال: ولا يوم الطين؟

نظرت اعتمادا إلى المعتمد وألقت نفسها عليه باكية آسفة نادمة..

وعاشت معه في سبات ونبات وأنجبت له البنين والبنات.

كانت اعتمادا صاحبة عقل ناضج، ورأي سديد، وكان زوجها الملك.. يرجع إليها في كثير من أمور

الدولة. ولكن العامة لم ينسوا قط أنها كانت جارية، وظلت عندهم "اعتماد الرميكية التي تغسل

الثياب عند النهر..

الحاجب للمعتمد: يا أميرنا إن ألفونسو قادم في موكب بهيج وهو داخل أسوار القصر.

المعتمد بن عباد يحدث نفسه " لو أخبرنا هذا المسخ بقدمه، لقد صار يشاركني قصري وحكمي يا

ويلي على ما صرت إليه!"

الحاجب: أميرنا!

- نعم نعم سمعت سمعت!

يدخل ألفونسو القصر ويجلس إلى جانب المعتمد ثم يقول: يا معتمد، ألم أطلب منك أن تحتل

قرطبة ورندة وماربيلا؟!

- نعم نعم، ولكن كما تعلم يا ألفونسو إن جيشي قليل مقارنة بجيوش تلك الولايات!

- ألفونسو ملك قشتالة سيساعدك، (الأدفونش) بجيشه سيكون إلى جانبك.

- إذن، من الغد سأحرك جيشي لاحتلال تلك المدن.

- ألم تعلم يا المعتمد أن موعد دفع الجزية قد حان؟ ولكي تعرف كم أنا متعاون سأؤجل دفعها إلى

السنة القادمة لأن الحرب مكلفة.

وفي الصباح كان جيش المعتمد يحتل البلاد ويحكمها

من هناك

رجل: الوضع لا يطاق، هذا العليج يأمرنا وينهانا؟

رجل: ويأخذ الجزية من مولانا؟

رجل: أرى أن نصارح قائد الجيش بما يقلقنا ونحرضه على الثورة والتمرد.

رجل: لا لا، هو له وبه، فهو كلب المعتمد الأمين، أرى أن نرسل واحدا منا إلى المرابطين فهم أملنا

الوحيد فقد ضعف أمرنا..وتشتت شملها وغلبنا ألفونسو على أمرنا..

رجل: المرابطون قوم اللثام والجمال، استطعوا توحيد بلاد المغرب وقد كانت في فرقه، فخلصت

إليهم وسلطانهم يوسف بن تاشفين صاحب نخوة وأنفة وشهامة رجل: اسكتوا وأنصتوا، سمعت أن

مولانا المعتمد قد طلب النجدة والعون من يوسف ابن تاشفين أمير المرابطين..

هَبَّ يوسف بن تاشفين لنجدة مسلمي الأندلس، وعبر إلى الجزيرة..سنة ٤٧٩ هجرية بجيوشه

الجرارة بقيادة قائده دواود بن عائشة، وتقابلت جيوش المرابطين والأندلسيين مع جيوش الفونسو

فكانت موقعة هائلة.. انتصر فيها المسلمون انتصارا هائلا.. عرفت بواقعة "الزلاقة"، وهرب الفونسو

وهو جريح. ثم اصطلح الفريقان ورفع ظلم الإسبان عن مسلمي الأندلس.. ولم يدفعوا لهم الجزية

المعتادة كل سنة وترك ابن تاشفين البلاد لأهلها وعاد إلى بلاده..

ادرك الفونسو.. أن الحال لن يدوم كثيرا؛ فلن يكون بوسع ملوك الأندلس طلب النصر من

المرابطين كل مرة خشية أن يأتوا ويمكثوا في الجزيرة ويسلبوهم الملك بعد أن رأوا خيرات البلاد وذاقوا

حلاوتها. فبعث الفونسو خطابا إلى أضعفهم عبدالله بن باديس.. ملك غرناطة، وطلب منه الجزية

فتفطن عبدالله إلى ما يرمي إليه الفونسو فهادهه ودفع اليه الجزية.. فكان ذلك سببا في إنقلاب العامة، والفقهاء عليه خصوصا..

شكا أهل البلاد لابن تاشفين، وطلبوا منه العودة الى بلادهم لأخذها وتوحيدها. فعبر بن تاشفين مرة أخرى سنة ٤٨٣ هجرية الى الأندلس، واستولى على غرناطة وأسر عبدالله بن باديس ونفاه الى المغرب ووزع المعتمد بن عباد، وخاف من ابن تاشفين أن ينزعه الملك فكتب الى الفونسو يطلب نصرته...

قاتل المعتمد بن عباد" قتال اليأس للدفاع عن ملكه، ولكنه ما لبث أن استسلم على أن يؤمن دمه ودم عياله من القتل...

نفي محمد بن عباد إلى مدينة أغمات على بغلة يركبها هو واعتماد بينما حرس المرابطين يركبون الأحصنة، وأسكن في بيت وضع بدائي في المدينة، ووضع عليه حارس غليظ، وقيدت رجلاه في الحديد، ومنع عنه المال والأقوات.. فأصبح بناته حفاة عراة، يغزلن الغزل ويبعنه في الأسواق، وأصبح الناس يتصدقون عليهن بالمال والطعام والملابس، وعادت الرميكية إلى سيرتها الأولى أشد بؤسا تغسل الخرق البالية، وتخبز ما يتسنى لها من الخبز الذي يستطيع أولادها الحصول عليه من بيع الغزل..

ماتت اعتماد، وأما المعتمد بن عباد فما زال مسجوناً في مكان ما من بلاد المغرب أو المشرق

في المساء التالي

جاء الغد، واجتمع القوم في المضافة ليسمعوا بقية قصة سيف بن ذي يزن ملك اليمن وطال انتظارهم، ومضى الليل بطيئا ثقيلا ولكن أبا إسماعيل لم يحضر فعادوا إلى بيوتهم يحملهم الحزن والحسرة ويجر أقدامهم الأسف والخذلان.

في الصباح انتشر الخبر فقد علم أهل القرية أن كتاب الحكايات قد سرق من مخبئه فصاروا يشتمون ويسبون وإلى سعد ينظرون... وبقي القوم يفتشون في كل مكان عن سارق الكتاب، وشكلوا مجموعات للبحث ووزعوها في كل مكان وبنوا العيون، ونشروا الجواسيس، وتسرقوا الأخبار، وتنصتوا على أطراف الأحاديث، وجلبوا الناس جماعات جماعات للتحقيق وأعلنوا الحداد في القرية، وأوقفوا الأذان، ولم يذهبوا إلى الحقول، وتركوا الأبقار والأغنام بلا حلب ولا رعي، وفتحت في القرية المناحات، وعلت في البيوت اللطميات..

ولكنهم لم يعرفوا لم يعثروا على سارق الكتاب ولم يسمعوا عنه خبرا ولا وجدوا له أثرا فكأنه فص ملح وذاب، وبقي القوم على هذه الحال أشهرا طويلا ثقالا وكأنهم جيوش مستنفرة فرت إلى الموت واليأس حتى جاء يوم مليح قال سعد فيه لأبيه ساكون معك الصريح فقال له أبوه قل يا سعد، ما عندك بعد؟ هات الكلام من آخره ولا تبخل علي بلطيفه وجميله فقال يا يابا كتاب الحكايات معي ورماه إلى أبيه وهرب...

في تلك الليلة في المضافة

واجتمع القوم في المضافة بعد إنقطاع طويل كثر فيه القال والقليل، وكان أهل القرية في المضافة كخلية نحل يتلاقفون الكلمات والضحكات والابتسامات ويشيرون بأصابعهم إلى سعد ثم يصمتون إذ هم كانوا على حالين: غضب من سعد وفرح بعودة كتاب الحكايات كتاب الحياة.

دخل أبو إسماعيل فنظر إلى حيث سعد ثم هز رأسه، وسلم على الرجال وكرر ثم جلس.

وبعد أن رَوَّض مكان جلوسه قال: قال الراوي يا سادة يا كرام إن الملك سيف سمع صوتا من أعلى القلعة يناديه فذهب كالأسد إليه، وكان ذلك الصوت سحرا قويا ضربه به المارد فأوقعه على الأرض، إلا أن أعوان الملك سيف من الجن سحبه إلى نفق كبير وصاروا يستخرجون من الملك سيف ما أصابه من السحر فنجحوا في ذلك وأعطوه قوة مضاعفة لهدم أسوار القلعة بيديه وبدأ الملك سيف يهدم أسوار القلعة ومارد الشر يرميه بحجارة من سحر وغضب وأعوان الملك سيف وأنصاره يصدونها عنه... وأدرك مارد الشر أن الملك سيف ترك بلاده من غير جيش يحميها، ولا من يقيها، فوجَّه إليها جيشا عرمرما وقال لهم: لا تبقوا على أرضها ديارا، اقتلوا الطفل قبل الشيخ والمرأة الحامل قبل المرأة العاقر، وأحرقوا الأخضر واليابس وسار الجيش...

قال أبو إسماعيل: غدا تأتون إلى المضافة بلباس العيد وكل ثوب جديد فغدا نهاية الحكاية. وترك المجلس...

قال سعد بصوت عال فيه زهو: سأكمل الحكاية لهم يا أبا إسماعيل لا تتعب نفسك بها فنظر أبو إسماعيل إليه بغضب متفجر، وحمل أبو سعد العصا ولحق سعدا في ممرات القرية الترابية...

جاء القوم بلباسهم الجديد وانتظروا وانتظروا ولكن أبا إسماعيل لما يأت...

قيل أكله الاحتلال، وقيل التحق بالمقاومة وصار جنديا في فتح يحكي لهم عن سيف والوزير سالم،
وقيل انضم إلى حماس، وقيل إنه مات قهرا بعد حرب حزيران، وقيل قطع الاحتلال لسانه خوفا
من حكاياته وتأثيرها في الناس، ولكن الخبر اليقين أنه لم يظهر منذ دخلت الدبابات مدينة نابلس،
وداست التاريخ بأقدام جافة من غضب وحقد وكره ...

من المقبرة إلى المغارة

عينان زرقاوان

كانت المغارة واسعة الأطراف تمتد أمتارا قليلة في الجبل، وعلى جدرانها كلمات ورسوم وآثار حرائق.. جهز سعد لنفسه متكأ مكانا فيها ليستريح، ثم أسلم نفسه لخياله...
قفز سعد من مكانه وصار ينظر في كل اتجاه فقد شعر أن شيئا يراقبه، أو أن شيئا يحيط به، وتذكر وهو يبحث في الاتجاهات عن ذلك الشيء المجهول أن أمه قالت له يوما وهو يصعد التينة التي تتكئ على فم المغارة: احذر يا سعد فهذه المغارة مسكونة، وفيها حية بسبع رؤوس" فدخله الخوف، وتنازعت قلبه الرهبة فقرر المغادرة، وما كاد يفعل حتى فاجأه وجه أشقر بعينين زرقاوين...

- من أنت، وليش داخل حاكورتنا؟

صاحب الوجه الأشقر والعينين الزرقاوين: اخرس ولا كلمة وسكر بوزك!!

هرب سعد وأطلق لرجليه العنان لتطويا المسافات إلى القرية...

نسي سعد ما كان في المقبرة وما كان في المضافة، نسي أنه طلبة أهل القرية وطلبة أبيه، ونسي كل ما كان يخشاه في البيت وركض إلى أبيه.

: يا بابا يا بابا

- ابن الكلب، حريق الوالدين!

وهم بضربه لولا أم سعد التي حمته بحضنها

- يا بابا في الحاكورة زلما أشقر وعيونه زرق ومعه العجايب ...

- صعق أبو سعد من الخبر، وقال بغضب: شو قلت يا غراب البين؟

- اي والله يا ابا وقال لي: سد بوزك وكان يريد أن يأكلني؟

- وسديت بوزك؟

- لا يا ابا هربت!

لم ينتظر أبو سعد سعدا كي يتم وصف الدخيل، فقد سارع بلبس القنباذ وركض كالمجنون إلى الحاكورة، ولما شاهده أهل القرية راكضا ركضوا خلفه، ولما رأوه يحمل الطورية، حملوا الكريكات والمناجل، ومطارق اللوز وقازعات الصبر...

تجمهر أهل القرية حول أبي سعد وهو يتجه إلى الأشقر ذي العينين الزرقاوين... - أيش بتعمل هون؟

الأشقر: آكل تينا؟

- تسلقتها واطلع من الأرض، ولا تعد إلى هنا مرة أخرى؟

تناول الأشقر مجموعة من العصي الحديدية، والأسلاك النحاسية وعبأها في حقيبة سوداء كبيرة وضعها خلف ظهره وغادر المكان من غير أن يقول كلمة بعد أن وزع ابتسامة شريرة على أهل القرية قبل أن يغادر..

من قبل ومن بعد

وداع

توافد أهل القرية لوداع أبي سعد فقد سمعوا أنه سيغادر إلى السعودية للعمل في إحدى مدارسها... وكانت أم سعد أعدت البيت والمضافة لاستقبال الضيوف وبخَّرتهما وأحسن ترتيبهما، وطلبت من سعد أن يحرص على تقديم القهوة ساخنة للضيوف، وعلمته طريقة صب القهوة: أمسك الدلة بيدك اليسرى والفتجان بيدك اليمنى ثم صب فيه قليلا من القهوة، وإياك أن تسكبه على الضيوف أو "تطشمه" وإذا لم يحرك الضيف فتجاناه فأعد صب القهوة له في الفتجان، هل فهمت يا سعد؟
هز سعد رأسه أن نعم

فهم سعد الدرس جيدا، وكرر كلمات أمه بصوت عال: الدلة بيدك اليسرى والفتجان باليمنى.. صب قليلا من القهوة وإياك أن يطشم. وإذا هز الفتجان فأعد صب القهوة له.. كان أبو سعد يرحب بالضيوف أحسن ترحيب ويقابلهم بوجهه البشوش ولسانه العذب وأما سعد فكان يحرص على صب القهوة لهم وهم في خيفة منه ومما لا يتوقع من فعالة، فهو يدور بينهم على غير هدى يحمل الدلة بلا حذر، ويصب القهوة بسرعة وكأنه في سباق لصب القهوة، وقد نبهه أبوه على ذلك أكثر من مرة ودله على الطريقة الصحيحة، ولكنه كان يصاب بقشعريرة وارتباك كلما شاهد أهل القرية ويتذكر تهديداتهم له، إذ له مع كل واحد منهم قصة مخفية جبا أو طمعا أو خجلا أو خشية، ولذلك كان الرجال في المضافة يجحرونه كلما مر عليهم، وينظرون إليه نظرات غاضبة معنفة فيرتبك ويتقلقل الفتجان في يده فينسكب على ملابسهم فيبادر أبو سعد بالاعتذار منهم وهم يقبلون اعتذاره بروح طيبة وابتسامة مزيفة

ظل أهل القرية على الطريق مرابطين حتى تأكدوا من مغادرة سعد قريتهم، وتنفسوا الصعداء عندما

عاد أحد رجال القرية بأخبار سعد: لقد ركبوا في باصات أريحا وودعتهم بيدي وعيني

- وهل كان سعد معهم؟ سأل أحدهم

- نعم حتى إنه أشار إلي بحركات من إصابعه ولسانه!

تنفس أهل القرية الصعداء وناموا ليلتهم بهناء